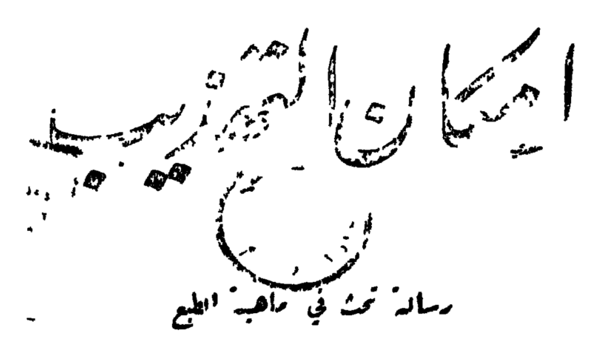
2393

Ś/IA

ابو زهير الاندلسي



واختلاف العلماء في تعريفه وتحديد العناصر المكونة له
وامكان تاثره بالتهذيب
ويتناول درس نظريات الحكماء الشكوكيين والمتقدمين والحديثين
في علاقة الطبع الانساني بالتربية والتعليم

ابلول سنة ١٩٣٠ مطبعة العرفان — صيدا

من آثار المؤلف في التربية والتعليم

— ١ —

الثقافة والتهذيب

رسالة تبحث في ماهية التهذيب

ومقام التربية والتعليم من حياة الأفراد والجماعات ولزوم ثقافة المعلمين

وتناول الموضوع من وجهتيه العلمية التجريبية والنفسية الطبيعية

ولزوم تأسيس دار المعلمين

— ٢ —

شرعية التهذيب

رسالة تبحث من ماهية الحرية وعلاقتها في التربية والتعليم

« تحت الطبع »

تمهيد

ماهية الطبع

بسلك التهذيب مناهج معينة لاعطاء الأحداث شخصية خاصة والتهذيب فنٌ ، وهو كبقية الفنون كناية عن خلق وابداع . ابتسلم المهذب الطفل وهو لا يزال على الفطرة ، اقرب الى الحيوان منهُ إلى الإنسان ، ويكوّن منه انسانا دراكا . فيتعهد عواطفه وميوله بالتربية ، ويتعهد مواهبه وافكاره بالتعليم . فتنمو روح الطفل بين يديه ، وقد طبعت بطابع خاص يلهمه اعماله وسلوكه ، وتوجد له التربية غاية يستعمل بها قواه الفعالة . وهي بكلمة واحدة تكوّن له طبعه ، أي ذاتيته ، وما يؤلف كيان نفسه (١) .

— معنى الطبع —

ولقد عزى العلماء الى الطبع معاني مختلفة ، تلائم الروح الفلسفية التي اختص كل منهم فيها . فتشبعت منها مبادؤهم ،

---

(١) راجع رسالة الثقافة والتهذيب للمؤلف صحيفة —

وتجات ظاهراتها في مؤلفاتهم . ولا غرابة لهذا الا [illegible] عنبع
من القضايا الكثيرة التعقيد . فإذا احببنا الوقوف على عناصره
فليس لنا الآن نطلع على مجموع التعاريف التي حاولوا بها تحديد [illegible]
هو في عرف بعض الأدباء صورة الإنسان [illegible]
التعريف واسع المعنى شاملا جميع الأفكار والعواطف [illegible]
في واحد من الناس واصح مثال لهذا المعنى نماذج الصور التي نجدها عن
الرجال في بعض المؤلفات الأدبية والتاريخية . فمنها ما جاء في
كتاب « حديث عيسى بن هشام » للمويلحي ، [illegible]
نواحي كثيرة من اخلاق هذا العصر وطباعه . ومنها [illegible]
كتاب لابرويير الأديب الفرنسوي الذي وصف [illegible]
الرجال في عصر لويس الرابع عشر .

ولم يذهب كثير من العلماء هذا المذهب في تعريف الطبع ،
فإن منهم من حصر معناه في شكل الفكر ، [illegible] بين
الطبع والمزاج فأرجع القوة المفكرة الى الأول ، والقوة الحسية
الى الثاني (١) ومنهم من اخرج موهبة الذكاء عن نطاقه . فأصبح الطبع
على رأيه شكلا معلوما للتحسس بالتأثيرات وكيفية متاومة (٢)

---

(١) قانت Kant (٢) ريبو Ribot

ومنهم من انكر امكان اطلاقه على اعمالنا اذا لم تتجلى في ظاهرة مادية محسوسة . فلا يعتبر مثلا تحبير الرسائل والكتب ، الذي هو من نتاج العمل ، داخلا في ظاهرات الطبع (١) . وذهب فريق من العلماء الى اسناد ميولنا في مجموعها مؤلفة له . وقد استغرب فوييه Fouillée كيف يمكن اخراج الذكاء والميول العقلية عن نطاقه بينما هي من عناصره الاصلية .

وهنالك اختلاف آخر جدير بالاهتمام وهو : هل يجب اعتبار ميولنا الموروثة ، وميولنا المكتسبة ، على حد سواء من العناصر التي تتالف منها الطبع ؟ — ان فريقا من الفلاسفة قد اجابوا على ذلك بأن « الطبع الحقيقي » هو مجموع الميول المكتسبة ، متميزاً عن الميول الموروثة من المزاج الطبيعي . ويرى ريبو ان السمات الخاصة التي تلازم فكرة الطبع الحقيقية تظهر عند المرء منذ نعومة اظفاره وترافقه طيلة حياته « والطبع الحقيقي » هو الطبع الموروث لا المكتسب (٢) .

---

(١) ريبري Ribéry

(٢) كتاب علم النفس لجورج دوماس المجلد الثاني صحيفة ٥٧٥ — ٥٧٦

— عناصر الطبع —

وكما ان الحكماء لم يتفقوا على تحديد العناصر المكونة للطبع فهم ايضاً على تباين عظيم في كيفية تأليف هذه العناصر بعضها مع بعض . فيصبح على رأي فريق الارادة الفعالة التي يقودها الاعتقاد الراسخ ، ويتحول الى سجية نادرة تلازم الرجل الحازم . وهي خصلة من خصال الارادة تجعل الانسان يعتنق مبادئ راسخة لا يرضى عنها بديلاً ، وهي في صيغتها هذه لم تتوفر لجميع الناس(١) وقد يمكن ان تكون تلك المبادئ مغلوطة على رأي البعض ، لكن صاحبها معتقد بصحتها ومقتنع من سلامتها . فتتقيد بها قواه الفعالة ، ولا يحيد عنها مهما كلفه الأمر ، ويقتحم في سبيل الدفاع عنها تضحية كل عزيز ، ولا يتلجلج في كفاحه حتى ولو اقتضى الأمر تضحية ذات نفسه . فيتخذ هنا لفظ الطبع المعنى الذي نطاقه اصطلاحاً على اصحاب المبادئ .

وهذا ما حدا بالمسيو ريبو (٢) الى الجزم بأنه لا بدّ من شرطين لتأليف الطبع وهما : الوحدة والاستمرار . أما الوحدة

---

(١) كتاب مبادي علم النفس للأستاذ . لار المجلد الاول صحيفة ٢٦٥

(٢) كتاب علم النفس لجورج دوماس المجلد الثاني صحيفة ٥٧٦

فتتراءى لنا في شكل معلوم للعمل والمقاومة لا تبديل فيه ولا تحوير ·
وأما الاستمرار فهو حاصل في ثبات هذه الوحدة على مرور الزمان
وقليل بين الرجال الذين يستطيعون بعد هذا التعريف ان يزعموا ان
لهم طبعاً حقيقياً !

ورأى فريق آخر ان لا لزوم لوجود هذين الشرطين لتأليف
الطبع · وتفاقم حال النظريات المتضاربة حولهما · فمن قائل ان
لا سبيل إلى التأليف بينهما فيقتضي اهمال امر الوحدة والاستمرار
لأن اساس الطبع التقلب والتلون والكذب والمخاتلة (١) · ومن
زاعم « ان لا حقيقة راهنة للطبع ، فما هو إلا فكرة وهمية وتصور
ناتج عن مجموع الحوادث البديهية لحياة الانسان » · (٢) وكثيرون
هم الذين يجزمون بأن الطبع حقيقة راهنة ، وسبب فعال يمتزج
بذاتية الانسان وارادته ويصبح واياها شيئاً واحداً (٣) ·

— الطبع في شكله الخارجي —

ويمكننا الآن تذليل صعاب تلك التعاريف المتناقضة التي اتينا
على ذكرها بدرس ماهية الطبع كما يتراءى لنا في شكله الخارجي
القابل للاختبار ، فنخرج من حيز النظريات المجردة ونلج باب المعاينة

---

(١) ولهان Paulhan (٢) سيمل Simmel (٣) قانت ومن رأى رأيه

والعرف. ولم يكن في استطاعتنا اهمال تلك الناحية بسرية لموضوع لأنها اسس ارتكزت عليها آراء العلماء القائلين بمتانة في الطبع. ولما كان الطبع موضوع التهذيب في الانسان اصبح من اللازم درس التعاريف المختلفة التي شيدوا مذاهبهم عليها

اما الطبع كما يتراءى لنا في شكله الخارجي، ولا ينفصل عن معنى ماهية روح الانسان الخاصة: فهو الطريقة التي ترى فيها مسحة من الوحدة والاستمرار النسبي في كيفية الشعور والفكر والارادة (١) وهو ماهية روح الانسان الخاصة وشكل معلوم من الفعالية (٢) بل هو كما حدده الحكيم مالابير **Malapert** « الكيان الخاص المؤلف من حالات نفسية مختلفة اجتمعت في نسبة واحدة عند احد من الناس » (٣)

— القوى النفسية —

إذاً لا ينفصل الطبع في جوهر معناه عن روح الانسان، وهو شكل خاص لتلك القوى التي دعاها العلامة ابن سينا بالعقل الفعال. ونقول شكل خاص لأننا نعتقد ان العقل الفعال لا يكفي وحده

---

(١) فوميه (٢) غيو Guyau (٣) كتاب المبادئ الفلسفية للثقافة لارتان ودريرو — حاشية صحيفه ١٩

يكون ماهية الطبع . أما هذه القوة الفعالة التي وصفها ابن سينا في رسالته «حي بن يقظان» فهي الارادة والغريزة معا . ودعاها القوة الفعالة تمييزاً لها عن القوى المتخيلة والغضبية والشهوانية . وماهية الطبع هي مجموع حالات اخلاقية تحملنا على العمل بشكل معين حين يستحثها محرض خارجي . وهي خلاصة هذه القوى مجتمعة ، وخلاصة غرائز الانسان الأصلية وعاداته المكتسبة . وهنا يرسب الفروق التي تميز البشر بعضهم عن البعض الآخر . وهي التي عنيناها بقولنا ان لكل منا طبعاً خاصا . فلو انيح لرجلين ان ينشآ معا ويشهدا حوادث واحدة ويتثقفا بمناهج واحدة فإنهما لن يسلكا في كلامهما وافكارهما وافعالهما سبيلا واحداً لأن مجموع تلك الحالات الأخلاقية التي اختص كل منهما بها تميز بينهما . وهذا ما حدا ببعض العلماء إلى التأكيد بأن الطبع للنفس كالمزاج للجسم(١) فمثلما تتميز الأجسام بأمزجتها الدموية والسوداوية والعصبية والليمفاوية تتميز الطباع ايضا بحسب اختلاف المواهب النفسية وبحسب شمائلها ومعايبها فنقول عن فلان انه حاد الطبع أو لينه ، كريم النفس أو خسيسها ، مجد في سلوكه أو مسف ، شجاع أو جبان .

(١) الاستاذ لار : مبادئ علم الفلسفة صحيفة ٢٦٥

ولابن مسكويه تعريف جامع للغرائز الموروثة والعادات المكتسبة . فإنه قد دعاها الخلق . وقال « إنهُ حال للنفس داعية لها إلى افعالها من غير فكر ولا روية ، وهذه الحال تنفسم إلى قسمين : منها ما يكون طبيعيا من اصل المزاج ، كالانسان الذي يحركه ادنى شيء نحو غضب ويهيج من اقل سبب وكالانسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من ادنى صوت يطرق سمعه ، أو يرتاع من خبر يسمعه ، وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من ادنى شيء يعجبه ، وكالذي يغتم من أيسر شيء يناله . ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب حتى يصير ملكة وخلقا » (١) .

وسنرى في هذه الرسالة كيف اتفق هذا التعريف مع علم النفس الاختباري على رغم ما فيه من الحصر . وهو كثير الشبه التعريف الذي ذكره الجاحظ (٢) في كتابه « تهذيب الأخلاق »

---

(١) كتاب تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق لابن مسكويه المتوفي سنة ٤٢١ ه

(٢) هو ابو عثمان عمر بن بحر الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ ه.

فقال عن الخلق « انه حال النفس بها يفعل الانسان افعاله بدون روية ولا اختيار . والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعا وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد » .

— سبب التناقض —

تلك هي ماهية الطباع التي قلنا فيها انها موضوع التهذيب في الانسان : وقد اختلف علماء النفس في درجة تأثرها اختلافهم في تعريفها وتحديد عناصرها . ولقضية تأثر الطبع وجميع قضايا علم النفس علاقة وثيقة بالتربية والتعليم . فألممنا المامة وجيزة بتناقض تعريف الحكماء لها . وسترى في هذه الرسالة نتائج هذا التناقض والنظريات التي نشأت عنه .

اما هذا التباين في التعريف فهو ناجم عن اختلاف في طرق البحث التي سلكها الحكماء . فمنهم من ينظر إلى الأشياء بواسطة العقل المجرد فيصفها لنا كما يعتقد انها هي عليه ، في عالم اللانهاية خارج كل تحديد زمني . ومنهم من ينظر اليها كما تتراءى له في الصيغة التي يمكن ان يتناولها بها الاختبار .

واختلاف نظر الناس إلى عين الأمور دليل آخر على وجود الطبع . ولولا يتميز الناس بطباعهم لما اختلفوا في افكارهم وعواطفهم وأعمالهم .

وقد خلق الناس اطواراً ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ؛ وهذه المسحة من الوحدة والاستمرار النسبي في كيفية الفكر والشعور والإرادة هي حقيقة راهنة لا ريب فيها . وهي التي تؤلف روح الانسان الخاصة . فهل تتأثر هذه الروح بالتهذيب ؟ وهل التهذيب أمر ممكن ؟ .

– الطبع والتهذيب –

ستكون غايتنا في هذه الرسالة الإجابة على هذا السؤال . وسنقصد اليها بتبويب الآراء ضمن نطاق التعاريف المختلفة التي سردناها . فهنالك إذاً واحد من ثلاثة أمور :

اما ان نتلقى قضية الطبع كهبة من الطبيعة تختص بها روح الطفل حين ولادته فيحتفظ بها طيلة حياته ، فلا تتأثر بتعديل أو تحوير . واما ان يكون الطبع خاضعا لحكم الأشياء المكتسبة فيطرأ عليه التعديل والتغيير ويخضع لناموس التطور ، واما ان يكون الطبع قابل التطور في ظروف معينة لا مناص منها ولا سبيل للخروج عليها .

ففي الحالة الأولى يصح الكلام على ان التهذيب أمر فضولي لأن جميع مساعيه تذهب ادراج الرياح فيكون المهذب كالكاتب على صفحات الماء : وهذا هو رأي الحكماء الذين نطلق عليهم

في هذا المقام اسم الشكوكيين .

وفي الحالة الثانية يتجلى لنا سلطان التربية على النفوس وتغيير مهمة المهذب واهميتها ، ونفس الطفل بين يديه كالصحيفة البيضاء يخط فيها بيده ما يشاء : وهذا هو ايمان الذين ندعوهم بالمعتقدين .

وفي الحالة الثالثة يصح القول بأن التربية ليست عقيمة كل العقم لخضوعها لحكم الأشياء المكتسبة ، وليست منتجة كل الفائدة لما يعتورها من العقبات التي تقيمها في سبيلها احكام الوراثة ، وان لها كثيراً من التأثير لكثير من الأشخاص : وتلك هي نظرية العلماء الذين نطلق عليهم في هذه الرسالة اسم النسبيين .

وسنخصص في الفصول التالية لكل مذهب من مذاهب الحكماء بحثاً نلخص آراءهم فيه بإمكان تأثر الطبع بالتهذيب (١) .

(١) اننا نسترعي انتباه القارئ الى لفظ « الشكوكيين أو المعتقدين أو النسبيين » الذي نكثر من ذكره في فصول هذه الرسالة . فالحكماء الذين ننعتهم بأحد هذه النعوت هم كذلك بعلاقة آرائهم بقضية التهذيب لا بالنسبة الى عقائدهم الدينية او الفلسفية . فقد يكون الحكيم شكوكيا باعتقاده الديني لكنه يؤمن ايمانا وطيدا بتأثر الطبع بالتهذيب تأثيرا ناجعاً . والعكس بالعكس . والفيلسوف قانت هو من الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لكنه مع ذلك يقول بجمود الطبع وعدم نفوذ التهذيب فيه فهو في هذا المقام من الشكوكيين .

الفصل الاول

نظرية الحكماء الشكوكيين

من هم الشكوكيون

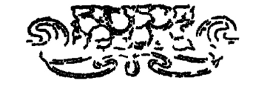
هم العلماء الذين نفوا امكان تأثر الطبع بالتهذيب تأثيراً ناجماً فقالوا بثبات روح الانسان الخاصة فلا يطرأ عليها تبديل أو تعديل. وليس القائلون بجمود الطبع من الجهلة الهذارين ، بل هم من الحكماء الذين لرأيهم وزن ، قد ادوا للفكر الانساني خدمات جليلة ، فاذا ما ذكرت الحكمة والعلم والأدب لمع اسمهم بين الزعماء . ما كان قانت وشوبنهور وفولتير واضرابهم رجال هذر . اذاً كيف يعقل ان تكون تلك العقول اللوامع منكرة ما للتهذيب من أثر في الطباع ؟ وفي هذا ما فيه من اطلاق . فاذا بنينا عليه تكون الوجهة العملية لهذه الأفكار في اغلاق ابواب المعاهد والمدارس لعدم فائدتها ؟

ولكننا لم نرَ أمـة اقدمت على مثل هذا العمل . حتى ان الأمـة الألمانية التي انجبت أمثال قانت وشوبنهور قد أعارت قضية التربية والتعليم اهمية قصرت عنها بقية الأمم . والشعب الفرنسوي الذي أوجد مثل فولتير لا يزال رافعاً لواء التهذيب عاليا . إذاً فلم يحمل ارتياب العلماء الشعوب على الاستغناء عن التهذيب ، بل نجد رجال هذه الشعوب قد اعتصموا بهِ لايمانهم بإمكان تحقيقه . وكل مـن تتبع سير الأمة الالمانية نحو الرقي والمدنية عزا نموها العجيب وفوزها المبين في عالمي السياسة والعلم إلى حذق اساتذتها واخلاصهم وتفانيهم في خدمة بلادهم . فهم الذين حرروها مـن النير الأجنبي في فجر القرن التاسع عشر ، وهم الذين هيأوا لها فوزها عـلى الامبراطورية النمسوية . وهم عنوان مجدها ومنعتها . وقد نهضوا بهـا إلى تلك الدرجة العليا بين أمم العالم .

وكان فولتير من حاملي لواء التجدد . وكان لآرائـه وآراء زميله جان جاك روسو تأثير عظيم على النفوس . فتلقاها فلاسفة القرن الثـامن عشر كآيات منزلات ونشطوا الى العمل بها . وكان ذاك الانقلاب العظيم الذي حطم شتى القيود ، وهدم شـتى العروش . حرر العقول من نير الجهل والجمود ، وحرر الأمم من ذل الاسترقاق

والاستعباد . إذاً فللتعاليم تأثيرها الفعال في الطباع البشرية ، فما هو نوع هذا التأثير ؟

نريد أن نتكلم في هذا الفصل على آراء قانت وشوبنهور وفولتير. وهم من أكثر العلماء غلواً بجمود الطبع وعدم امكان تأثره بالتهذيب تأثراً ناجعاً .



١ — جمود الطبع والفلسفة العقلية

— رأي قانت فيلسوف (١) —

يؤكد فيلسوف كونكسبرغ ان كلنا قد طبع منذ الأزل بطابع خاص . وانما حملنا هذا الطابع حين « هبوطنا » إلى هذه الدار . وان ارادتنا تظل كما كانت عليه فلا نستطيع إلى تبديلها سبيلا . أما مظاهر طبعنا التي يمكن درسها بصورة اختبارية فهي عبارة عن « الطبع المدرك » الذي اخترناه بحرية تامة قبل ان نولد ، اوبالحري في اللانهاية ، خارج كل تحديد زمني ، وان لهذا الطبع نتيجة محتوما (٢)

---

(١) قانت Kant فيلسوف الماني [illegible] كونكسبرغ (١٧٢٤ — ١٨٠٤) وهو صاحب الفلسفة العقلية وله مؤلفات في انتقاد العقل [illegible] [illegible] واسعد [illegible] لطبيعه [illegible] . ويرى [illegible] يكون [illegible] . [illegible] واوصلت الانسان إلى الواجب . [illegible] الحالة و [illegible]

(٢) راجع [illegible] كتاب قانت : في انتقاد العقل العملي صحيفة ١٦٩ — ١٩١ وانتقاد العقل المجرد صحيفة [illegible]

– رأي قانت كمهذب –

ذلك رأيـــه قانت كفيلسوف ، وفيه ما فيــه من اطلاق في القول بجمود الطبع . لكن الاستاذ قانت الذي زاول مهنـــة التعليم طيلة حياته آلف رسالة يظهر لنا فيها ايمانه « بوجوب » التهذيب .

قال في مقدمة رسالته : لقد اودعت الطبيعـــة في بذور النبات خصائص عدة يكفي ان نتعهدها بشيء من العناية حتى تنمو وتنشأ . فإذا أخذنا فسيلا من اسفل شجيرة النبات المعروف برجل الدب وغرسناها جاءت زهورها عـلى لون واحد بينما اذا زرعنا بذور النبات عينه اتت الزهور مختلفة الألوان . . . ويوجد في المخلوقات خصائص كثيرة ، والانسان لا يخرج عن هذه القاعدة . وعلينا ان نتعهد ميولنا الطبيعية وان نصرف جهودنا في القيام بما جئنا لأجله . وتقوم الحيوانات بمهمتها آليا وبدون ان تدرك سرها بينما يجب على الانسان ان يحاول الوصول إلى مقاصده ولا يستطيع ذلك الا اذا كان متشبعا من فكرة امكان الوصول اليها . اما الواجب الذي يطلب منه فهو ان يهذب نفسه ويوجهها نحو الصلاح إذا كانت شريرة وان يتعهد فيها جيد الأخلاق .

— وجوب التهذيب —

ونفهم من هذا القول ان الواجب علينا هو تهذيب انفسنا وتوجيهها إلى الصلاح اذا كانت شريرة . واذا قابلنا هذا النصح بذاك التأكيد الجازم بأن روحنا طبعت منذ الأزل بطابع خاص لا نستطيع إلى تبديله سبيلا جاز لنا التساؤل عن معنى هذا الواجب الذي يدعونا اليه قانت كمهذب ويسد في وجهنا سبل تحقيقه كفيلسوف . ولا ادري كيف يمكننا ان نتعهد في انفسنا حميد الأخلاق ونسعى وراء الإصلاح إذا كانت طبيعتنا براء من قابلية التغير ومحكوم عليها منذ الأزل ، في اللانهاية ، بأن تظل كما خلقت .

ولا لبس على ان من آمن بالواجب آمن بامكان تحقيقه . والا أصبح ضربا من التمويه ان نساق الى سلوك طريق ليس في امكاننا السير فيها .

— هل من تناقض —

وقبل الجزم بوجود تمويه أو تضليل يجب أن نعود إلى مصدر تلك الفلسفة التي حمل لواءها هذا الحكيم الكبير . وقد حذرنا في كتابه « انتقاد العقل المجرد » من هذا التناقض . وقال ان الوسيلة الوحيدة للتخلص منه هي التمييز بين نظام الحوادث كما تتراءى لنا

وبين ما هي عليه في الحقيقة . وقد تناول في جزمه بجمود الطبع معنى الروح في جوهرها الفرد القائم بنفسه ، فوضعها بحسب الصيغة التي هي عليها خارج كل تحديد زمني . ثم انهُ حينما كتب رسالته في التربية والتعليم ذكر حالات للحوادث التي تقع تحت الاختبار والمشاهدة ، وأتى على مثال النبات وخصائصه ، وانتقل الى الكلام عن المخلوقات وخصائصها ، ثم عن واجب الانسان ولزوم إصلاح نفسه . وهنا جاء الكلام عن الحوادث كما تراه انا فشرحها من تلك الناحية التي يمكننا اختبارها .

— عملية العقل المجرد —

ويحملنا هذا التناقض الى بحث نظرية كانت في معنى العقل المجرد . ولهذا الحكيم بحث مستقل يشرح فيه كيفية تفكير الانسان ووصوله الى الحقائق ، ومقام العقل في عملية التفكير . وقد رأينا ان نلخص نظريته فيما يلي : (١)

ترجع الحس التأثرات الحية الى وحدة القوة المدركة ، وترتبها في شكلها المعينة لها في الزمان والمكان . ثم ترجع القوة المدركة المدركات الى وحدة القوة الحاكمة وترتبها بحسب مبادئها . واخيرا

(١) الاب س — تاريخ الفلسفة صفحة ٥٣٢ — ٥٤٤

تتم عملية التفكير في ارجاع الأحكام نفسها إلى وحدتها الممكنة .
وهذا هو عمل العقل المجرد .

ويصل العقل إلى هذه العملية بواسطة ثلاثةافكار يدعوهاقانت بالمبادىء العقلية أو الأفكار المجردة التي تخرج عنحد الاختبار وهي : الروح ، والكون ، والله .

فالروح هو السبب الأصلي لما يحدث فينا .

والكون هو السبب الأصلي لما يحدث حولنا .

والله هو السبب النهائي للروح والكون لأن المحدود يوجب غير المحدود والنسبي يوجب المطلق .

– قيمة هذه الأفكار –

فما هي قيمة هذه الأفكار الثلاثة في نظر قانت ؟

هو لا يرى فيها سوى حالات تأليفية للعقل . وهي نتيجة خالصة لتلك الحاجة التي تدفعنا إلى تأليف الحوادث وربطها بعضها ببعض ، ذلك الارتباط الكوني والنفسي والديني . إذاً لا يوجد ادنى علاقة لهذه الأفكار العقلية الثلاثة مع أي حقيقة وضعية . وهي مثل مبادىء الادراك واشكال الحس ، ليس لها ادنى علاقة بالحقائق التي يمكن اختبارها والتثبت منها . وهي في الواقع

قياسات فرضية لا سبيل الى التثبت من صحتها . وعلى هذا يصبح ما نسميه الروح فكرة لوحدة الخاطر ، التي تتجلى للضمير بين مختلف الحوادث . فالجزم بوجود الذات الجوهري ، بناء على هـذا الذات الظاهري المختص بحادث معين ، هو بمقام ابدال الحكم التحليلي الذي يوسع صورة الفكر ، بحكم تأليفي ، يعتبر الذات الذي يدركه الضمير كجوهر فرد قائم بنفسه ذي وحدة حقيقية .

— امثلة عن تناقض العقل —

وعلى هذا ايضا يحاول العقل ان يعطي لفكرة الكون قيمة وضعية قابلة للاختبار . فيقع العقل في تناقض لا مناص منه . وعدد لنا قانت اربعة امثلة لهذا التناقض :

المثال الأول : لا حدود للكون في المكان ولا نهاية له في الزمان ويقال في عكسه : الكون محدود في الزمان والمكان .

المثال الثاني : للمادة قابلية التجزؤ إلى حد غير متناه . تلك نظرية علمية اضل عنها دبكارت **Descartes** . لكن لايبنيز **Leibnitz** حاول اثبات عكسها أي ان المادة مؤلفة من عناصر بسيطة غير مركبة وغير قابلة التجزؤ .

المثال الثالث : توجد اسباب حرة . وقيل في عكسه : لا أثر

لوجود اسباب حرة وكل شيء مقدر محتوم .

المثال الرابع : ان سلسلة الأسباب محدودة وفكرة العالم توجب فكرة مبدع اول . ثم كثيرون هم الذين حاولوا اثبات عكس ذلك بقولهم : ان سلسلة الأسباب غير محدودة ولا وجود لمبدع أول .

ويزيد قانت على هذا ان الدفاع عن كلا الرأيين متيسر أما الوسيلة للتخلص من هذا التناقض فهي بالتمييز بين نظام الحوادث كما يتراءى لنا وبين ما هو عليه في الحقيقة وفي عدم النظر إلى فكرة الزمان والمكان وفكرة العلل ، صورية كانت أو مادية ، الا بعين العقل المجرد واعطائها قيمة نظرية صرفة .

— صعوبة البحث النظري —

والنتيجة التي يصل اليها قانت من هذا البحث هي استحالة اثبات صواب أي حكم تاليفي نظري وبالتالي تصبح معارفنا مقتصرة بطبيعة الحال على الأحكام التأليفية الاختبارية أي الحقائق التي نستطيع اقامة الدليل المحسوس عليها .

اما هذه الحقائق فلا تصف لنا الأشياء كما هي عليه في اللانهاية بل مثلما تتراءى لنا خلال الأشكال والصور التي يبتدعها فكرنا .
ولما لم يكن لهذه الأفكار والصور قيمة وضعية اختبارية نتج عن ذلك

ان العقل الإنساني عاجز عن ان يخرج من ذات نفسه وان يثبت شيئا عن حقيقة الأشياء ٠

تلك هي نظرية قانت في العقل المجرد ٠ وهي التي الهمته قوله في جمود الطبع فحصر معناه بالطبع الغريزي الموروث ٠ وقد اثبت علم النفس الحديث خطأ هذا الحصر كما سنرى ذلك فيما بعد ٠

أما الوجهة العملية لرأي قانت في التهذيب فهي ايمانه بوجوبه ومن آمن بوجوب شيء آمن بامكان تحقيقه ٠



٢ـ جمود الطبع وقيمة التهذيب

— الطلاء الظاهري —

جاء شوبنهور (١) بتعديل جدير بالاهتمام وان كان لا يدعو الى التفاؤل الكبير . وهو شديد الاطلاق مثل زميله قانت . والطباع على رأيه غريزية فلا امكان لتغييرها أو تبديلها . وهو يقول : «ليست اعمال الرجال على اختلافها الا ترجمانا لطبعهم المدرك .. . ويسير اعمال الانسان عوامل نفسية داخلية تظهر لنا عن طريق الطبع وهذا التسيير هو جبري (٢)» .

---

(١) شوبنهور Shcopenhauer فيلسوف الماني ولد في مدينة دانتزيك ومات في فرانكفورت (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠) وكان خصماً عنيدا لأشهر الفلاسفة الألمان مثل فيخت وشانينغ وهيجل . واهم مؤلفاته العالم كإرادة وتصور وفيه يشرح نظريته حول التصور الإنساني ومعنى الإرادة والقوة . ويرى ان الإرادة تتجلى لنا بالرغبة في الحياة . لكن هذه الرغبة يعقبها الجهود وبالتالي الآلام . وقد اشتهر بتحليل شرائط الحياة هذه بطريقة مشبعة بالتشاؤم .

(٢) كتاب اساس الأخلاق صحيفة ٨٠ — ٨٦ لشوبنهور .
العالم للارادة وتصوره صحيفة ٣٠٣ لشوبنهور ايضا .

وهو يرى اننا لن نجد لطبع الإنسان تبديلا مهما كان نوع
التربية التي نسديها اليه . ويمكن اكساؤه على الاكثر بطلاء يحجب
معايبه ويكبح شهواته . وربما توصلنا الى تعليمه كيف يمكن ان يخفي
عيوبه خبثا واحتيالا . بل ربما استطعنا ايهامه انه قد طرأ بعض التحسين
على حاله ولكننا في الحقيقة لم ندخل ادنى تغيير إلى اعماق نفسه .

ويقول ايضا ما معناه : يمكن للعقائد والعادات والمثل الصالحة ان
تؤثر جميعاً في اعمال الرجل وسلوكه بل في اعمال الشعب ايضا
لكن الأعمال في حد ذاتها ليست إلا صوراً وهمية ، لا يسوقها
اليها شيء سوى الحالة النفسية . وتعطي الحالة النفسية تلك الأعمال
قيمة اخلاقية . ويمكن ان تظل الحالة النفسية هي ذاتها بينما يكون
لنا مظاهر خارجية مختلفة . . . وقد يكون الدافع الى عمل السوء
واحداً في ماهيته : فيظهر عند بعض الشعوب بأعمال الغلظة والخشونة
والشتم والقتل ، بينما يظهر عند البعض الآخر بأعمال لينة مرنة
ومكايد تدبر في الخفاء ، وبغي يخفي سبله ، وحبائل واحتيالات
كثيرة الألوان . لكن روح الأعمال تبقى واحدة في المنهجين .

ويستطيع الناس ان يبتدعوا وضعة كاملة لا شائبة عليها ، أو
عقيدة توحي اليم إيمانا وطيداً بثواب أو عقاب ينتظرهم بعد الممات .

فتفلح هذه العقيدة بمنع الجرائم . فتكون قيمة هذا الأمر عظيمة من الوجهة السياسية . أما من الوجهة الأخلاقية فلم يربحوا شيئا . فيكبحون الأعمال لا الارادة ، فتجيء الأعمال مهذبة اديبة لكن الإرادة تبقى على فسادها (١)

— تشاؤم شوبنهور —

وقد يبعث هذا الرأي المتشائم اليأس في النفوس اكثر مما يفعل رأي قانت . فالمدنية والتربية لا تجديان نفعا في مذهب شوبنهور ولا تعلمان الإنسان الا الخبث والمكر الى السقوط الأخلاقي التام . فتكبح الأنظمة والقوانين جماح الإنسان وتدخله الوضعة الإجتماعية . لكنه في اول فرصة تسنح له يستفيد من حريته فيطغى ويطلق العنان لشهواته ، وغريزته الشريرة . فيقضي على ذلك الطلاء البراق و يظهر تحته الخشب المسوس فيتحطم عند اول صدمة وينهار إلى الحضيض لأول عاصفة .

يجزم إذاً شوبنهور ان الطباع على اختلافها موروثة وغير قابلة للتغيير، فلا يمكن مثلا تبديل العوامل التي تخضع لها إرادة الاناني فيمكنك بواسطة التهذيب ان تغش الأناني أو أن تصحح افكاره ،

(١) راجع كتاب شوبنهور منتخبات ترجمة بوردو . طبع الفان صحيفة ١٧٣

ويمكنك ان تقنعه بأن الوسيلة الأكيدة التي توصله الى شاطئ السلامة هي العمل والنزاهة ، لا الاحتيال والسرقة . أما ان تجعل نفسه حساسة بآلام الغير فهذا ما يجب ان تقلع عنه ويتعذر ذلك عليك كما يتعذر تحويل الرصاص إلى ذهب . « ويمكنك اقناع الاناني انهُ يستطيع ان ينال نفعاً جزيلا باستغنائه عن نفع ضئيل ، واقناع الشرير بأنهُ يجلب لنفسه اذى لا يطاق بمحاولته ايذاء الغير . أما التوصل إلى دحض الأنانية والرذيلة في ذاتهما فهذا هو الأمر المستحيل ، ويتعذر ذلك تعذر اقناع الهر بأنهُ على ضلال بحبهِ للفيران (١) » .

— قيمة التهذيب الأخلاقية —

يقرّ الفيلسوف المتشائم بتأثير ظاهري للتهذيب . وهذه هي الخطوة التي اشرنا اليها بقولنا انها جديرة بالاهتمام . ويحصر قيمة التهذيب في الوجهة السياسية ، وينكر عليهِ قيمته الأخلاقية . فالتربية تصبح على رأيه وسيلة لحمل الانسان على احترام النظام الاجتماعي ، فلا يمس حقوق سواه من الناس بضر ولا يتمتع بحريتهِ الا بقدر ما تسمح له بذلك حرية سواه ولا يطلق العنان لشهواته الا

(١) رواه بايو في كتابه تهذيب الإرادة صحيفة ٢٢

خوفا من العقاب الواقف له بالمرصاد فيروض الوحش المفترس الذي يختبئ بين جوارحه ، فلا يجعله طبعه الاصطناعي أي طبعه الكسبي شريفا حقيقة بل يعطيه مسحة ظاهرة من الشرف ، وكل هذا ليس بالغاية الكمالية المثلى التي يجب ان يسمو اليها الانسان . لكن إذا سد شوبنهور على التربية جميع المنافذ الأخرى ، الا تكون قد قامت بعمل مفيد نافع ؟ واذا كانت التربية على حد قوله ضربا من الكذب والتمويه فهو يضطرنا إلى الانتخاب بين الاستغناء عنها [illegible] دون العلم ، وبين الاكتفاء بهذا الكذب الذاتي والتمويه المفيد .

انما الأعمال بالنيات ، تلك هي الوصية الأخلاقية [illegible] اعمال الإنسان لكن النظام الاجتماعي يعتبر العمل في ظاهره . [illegible] في [illegible] نكون قد [illegible] الى [illegible] اذا [illegible] بينه وبين الرذيلة . فسجل [illegible] اقراره [illegible] الرأي . فإذا كان [illegible] فهو يجوس [illegible] . .

و[illegible] ما يذكرنا بالتعريف الذي يطلق [illegible] . [illegible] معرفة [illegible] غريب ولا يمكن [illegible] ان يوافق على مثل هذا التعريف المنافي للأخلاق السامية . واذا جاز

لنا اطلاقه على بعض مظاهر المدنية الغربية الحاضرة فلا يجوز لنا اطلاقه على المدنية بوجه عام . وليست المدنية ملك الغرب دون الشرق بل هي ثمرة من صنع الأجيال المتراكمة فمن الخطأ ان تحتكر امة من الأمم المدنية بمعناها الشامل العام . فالعقلية الانسانية الحاضرة هي من صنع الانسان ، من صنع الحضارات المتعاقبة . أما الحضارة الغربية الحاضرة فقد يكون لها عذرها في الانصراف إلى اعتبار قيمة التأديب السياسية ، لأن تكالب الناس في هذا العصر على المادة وانصرافهم إلى عبادة المال جعلهم بحاجة قصوى إلى تعزيز النظام الاجتماعي المهدد في سلامته والمنذر بسوء العاقبة . وجعلهم ايضاً بحاجة شديدة إلى الدفاع عن القانون لمنع الناس من ان يأكل بعضهم بعضاً لذلك لا نعجب بعد هذا ان يحصر بعض رجال هذه الحضارة معنى التأديب بمعرفة اخفاء العيوب ، خوفاً من العقاب الواقف بالمرصاد ، خوفاً من العصا ! وليس من شرف الأخلاق في شيء ان يهذب الناس على طريقة الرهبة من العقاب سواء اكان ذلك خوفاً من السجون ، جحيم هذه الحياة الدنيا ، أم خوفاً من جهنم ، جحيم الحياة الأخرى . ولا قيمة اخلاقية لعمل الخير إذا كان صاحبه ينتظر من ورائه اجراً جزيلا . ان الخير والفضيلة لذتهما الخاصة . فيجب ان

يكون التأديب طريقاً يهدي الناس اليهما ويوصلهم الى الخير لنفسه والى الفضيلة للفضيلة عينها، لا رهبة من عقاب ، او رغبة في ثواب، معجلا كان أو مؤجلا .

— الطبيعة الإنسانية والمجتمع —

وقد يوجد بين رأي شوبنهور في فساد المجتمع الانساني ورأي روسو (١) بعض الصلة . فالتقط بلا شك شوبنهور هذا الرأي عن روسو ومسحهُ بتلك المسحة الخاصة بهِ وبآرائهِ المتشائمة . وما الانسان بنظره «الا وحش ضار وحيوان مفترس» . بينما يقول روسو بصلاح الطبيعة الانسانية وان فساد المجتمع وما وصل اليه من انحطاط بسبب فساد التربية يفسد عليها صلاحها . ثم ينادي روسو بإصلاح الانسان بالتربية وله فيها رأيه، لا مجال هنا للتبسط فيه ، وسننظر فيه برسالة مستقلة . فيقلد شوبنهور روسو بالاعتقاد بفساد المجتمع ويقطع

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) هو صاحب النظريات الاجتماعية الشهيرة واول ما كتبه عام ١٧٥٠ خطابه في هل رقي العلوم على فسد العادات أو اصلاحها . وخطاب في أصل عدم المساواة بين البشر . وكتب في التربية «هيلويز الحديدة» وفيها نظرياته في تربية المرأة وكتاب «اميل» وفيه آراؤه عن التربية الطبيعية . اما «العقد الاجتماعي» فقد ضمنه آراءه الاجتماعية والسياسية .

الأمل من اصلاحه من الوجهة الاخلاقية ، لأنهُ يرى ان الطبع موروث ولا سبيل إلى تبديله أو تعديله في جوهره ، بينما يعقد روسو على التربية الآمال الجسام ويقول انها السبيل الوحيد للمحافظة على صلاح الإنسان وتحسين المجتمع درجة درجة . فمن الخطأ اذاً ان نذكر اسم روسو مع رهط الشكوكيين ، وهل يجوز لنا ذلك وهو القائل : نحافظ على النبات بالتشذيب وعلى الرجال بالتهذيب !
إذاً هو من المعتقدين بفائدة التربية . ولم تقم شكوك روسو الا على المسائل الشوهاء التي كان عليها زمنه فينادي بإصلاحها . ويعتقد ان التربية [illegible] الأولى بل هي السبب الوحيد لاصلاح الشر . ويعدد فساد حال مجتمعه من جميع وجوهه : في سقوط الاخلاق [illegible] الفرد وفي تضعضع تقاليد الحياة العائلية وفي [illegible] أوضاع المجتمع . . وقصده من وراء هذا ان يقوم مقام سيادة التقاليد الخرقاء سلطان الطبيعة الصالح ، وان يستبدل حكم الاستبداد الناشئ [illegible] الطبيعة وتقديم المذاهب العقلية الانسانية بحكم [illegible] تلك النواميس والواجبات [illegible] ان [illegible] وتزدهر [illegible]
[illegible] اذا كان ذلك البيان [illegible]
بنداءاته بالاصلاح التهذيبي والاصلاح العائلي والاصلاح [illegible]

كان ينفخ في بوق ثورة اجتماعية عامة يقضي بها على الأوضاع الفاسدة لاقامة اوضاع جديدة تكون اصلح منها لاعادة الفضيلة الى اخلاق البشر والرحمة الى قلوبهم . فروسو إذاً يعتقد بصلاح الانسان وفساد المجتمع بينما شوبنهور يجزم بفساد الطبيعة الانسانية والفرق بين المذهبين عظيم .

— فولتير وجمود الطبع —

أما فولتير فهو بلا مراء من الشكوكيين لأنهُ يقول إذا كان بإمكاننا تغيير اجسامنا نقوى على تغيير طباعنا . ويقول : « قد يجوز لرجل حاد المزاج صلب الارادة ، سريع الانفعال ان يتحول في شيخوخته اثر فالج يقعده إلى طفل ابله ، هادئ وجل ، يبكيه اقل الأشياء : فقد طرأ على جسمه تغيير . لكن ما دامت اعصابه ودمه وعظامه الفقرية ثابتة على حالة واحدة ظلت طبيعته كما كانت عليه ... لو كان يمكن للمرء ان يبدل طبعه بطبع غيره لاختار لنفسه ما شاء ولأصبح سيد الكائنات . وهل بإمكاننا ان نهب انفسنا شيئاً ؟ جربوا ايقاظ الكسول من غفلته او اطفاء ثورة نفس شديدة المراس كثيرة الغليان فلا تستطيعوا الى ذلك سبيلا وان حاولتم تكونوا كمن يحاول رد البصر إلى الأعمى الذي لم

يتعرف قط إلى النور (١) » .

ومن البديهي ان للتربية يداً في إيقاظ الكسول من غفاته . فكم ايقظت امما من خمولها وبعثتها بعد موتها ! ولو عاش فولتير بضع سنوات اكثر مما عاش لهاله تأثير تعاليمه وتعاليم معاصريه في امته . فألقت عنها النير الذي كان السبب الحقيقي لفساد المجتمع الذي عاش فيه وألهمهُ تشاؤمه . فلم يحسن الانسان في اسس الوضع الاجتماعي فحسب بل ادخل التحسين ايضا على عقيدته بتفهم معنى الواجب .

ولا بس على ان ذهنية الانسان اليوم ، مع ما فيها من جشع واثرة ، هي ارقى من ذهنيته في الماضي ، لا سيا في تفهم معنى الواجب في شكله الذي يقربه من الأخلاق السامية . اما اطلاقه في عدم رد البصر الى الذين لم يتعرفوا قط الى النور ، فقد توصل العلم الى هدمه باكتشاف الطريقة التي يمكن استعمالها لاعادة البصر الى الذين

---

(١) فولتير : القاموس الفلسفي مادة الطبع .

وهو فيلسوف فرنسوي ولد ومات في باريس ١٦٩٤ — ١٧٧٨ واشتهر في جرأته وصراحته في زمن كان المرء فيه يحاسب على اقل فكر صريح . وزار لندن وبرلين فكان ضيفا على اهل روسيا . وله مؤلفات في الادب والتاريخ كثيرة واشهر مؤلفاته الفلسفية رسائله وقاموسه الفلسفي . وكان لآرائه تأثير اجتماعي كبير . فكان يطلب الغاء التعذيب في السجون وطلب الاعتناء بالصحة العامة واقترح آراء عدة لتحسين الحياة الاجتماعية في زمنه .

خلقوا عميانا . لكن فولتير يخفف من غلوائه ويزيل هذا الاطلاق في جزمه ويقول : اننا نصلح ونلطف ونخفي ما اودعته الطبيعة فينا وهذا هو الرأي الذي التقطه شوبنهور واسهب فيه جاعــلا للتأديب قيمة سياسية فحسب .

***

وخلاصة عقيدة الحكماء الذين نعتناهم بالشكو كيين هــي : ان للانسان طبعاً موروثاً ، وهو طبعه الحقيقي ، فلا سبيــل الى تحويره أو تبديله بالتهذيب . وقد حملت قانت فلسفته العقلية المجردة إلى اعتبار الطبع مخلوقا في اللانهاية فيظل على الهيئة التي خلق عليها وحمل شوبنهور تشاؤمه الى الجزم بجمود الطبــع ، وهو لا يرى في التأديب الا طــلاء ظاهراً لا يلبث ان يظهر تحته الطبع الحقيقي الموروث . فلا يأبه اذا هذا الفريق من الحكماء بمزايا الطبــع الكسبي . ونكتفي بما اوردناه عن رأيهم . وسنرى في الرأي الثاني الرأي القائل بتأثير التهذيب المطلق على النفوس ، فيذهب اصحابه في اطلاقهم على عكس ماذهب اليه الشكو كيون .

الفصل الثاني

نظريــة الحكماء المعتقدين

من هم المعتقدون (١)

هم العلماء الذين يؤمنون ايمانًا وطيداً بتأثير التربية المطلق على النفوس وهم كثر ، ولقد قالوا ان الطبيعة لا تهب الناس طباعهم ، خلا بعض الحالات الشاذة ، وإن الطبع هو ثمرة تنضج مع الزمن ، وان من الخطأ اعتباره من الحالات الموروثة ، فهو من الأمور المكتسبة ، يتكوّن بالتدريج تحت تأثير اسباب وعوامل مختلفة (٢) . أما اسباب التباين الحاصل بين طباع الناس فهي من نتاج التربية .

---

(١) مارتان وماريزو : المبادئ الفلسفية للثقافة صحيفة ٢٩ — ٣٩

(٢) بايو .

فتقودهم التربية إلى سوق عقولهم وتنظيم اعمالهم ضمن حدود يألفونها ، وتتفاوت تلك الحدود في قبحها وحسنها (١) وانما الناس مدينون للتربية في تلك الفروق التي تميز بعضهم عن البعض الآخر (٢) .

ويذهب فريق إلى ارجاع سبب التباين الذي يرى بين عقول البشر الى شكل الحكومة التي يعيشون في ظلها وإلى عوامل السعادة والبؤس التي تكتنف القرن الذي يولدون فيه ، والى قواعد التهذيب الحسنة أو الرديئة التي يتلقونها ، وإلى قوة الميل الذي يدفعهم الى طلب الشهرة ، وإلى الأفكار المفيدة التي تكون موضوعاً لتأملاتهم فالرجل النابغ ليس الا نتاج تلك الظروف التي يكون قد نشأ بها (٣

وينادي فريق آخر بلزوم تأسيس علم يختص بدرس الطبع ويدعوه الاتيولوجيا فيعقد على علم الطبع الآمال الجسام ، ويؤمل ان يكون هذا العلم عوناً مفيداً لفن التهذيب . فيرتكز عليه بعد ان تتقرر قواعده ونواميسه الثابتة (٤) .

ويكاد بعض هؤلاء المعتقدين ينكر على الطباع اصلها الموروث فتحمله حماسته إلى الجزم بأن الطبع هو ثمرة التهذيب ونتيجة له ،

---

(١) ديكرت . (٢) لوك . (٣) هلفاسيوس . (٤) ستوارت ميل .

ولا أثر للطبع في حالة الإنسان الأصلية .

وسنبدأ هذا الفصل بدرس الرد الذي خصصه بايو في كتابه « تهذيب الإرادة » على اخصام مبدأ امكان تأثر الطبع . فنرى كيف يفند مزاعم قانت وشوبنهور ثم نقول كلمة عن آراء بقية الحكماء المعتقدين في الطبع الكسبي والتربية الذاتية .



١ تفنيد مزاعم الشكوكيين

— كتاب تهذيب الإرادة —

يلخص پايو Payot في مطلع الفصل المختص بالرد على الشكوكيين في كتابهِ « تهذيب الإرادة » آراء هؤلاء . فنضرب صفحاً عن ذكرها هنا لأننا شرحناها شرحاً وافياً في الفصل الأول من هذه الرسالة . ويعرّض في الطريقة التي سلكها كانت وزميله لانتقاد الفلسفة العقلية . ويعتقد ان النقد يجب ان يكون عملا تمهيديا للبناء يقدم عليه الكاتب بكل روية واعتناء ، ثم يبقيهِ لنفسه لأن الجدل المبني على الانكار لا يجدي فتيلا في الاقناع ، ولا شيء اوهن من الانكار الصرف . فهو عمل هدم وفي مثل هذا البحث يجب البناء .

ثم يستدرك عمله الانتقادي الذي لم يقدم عليه إلا لأن كتابه عمل تشييد وبناء ، فيواجه نظريتين منتشرتين انتشاراً واسعا مخيفا هما محزنتان في نتائجها العملية بقدر ما هما فاسدتان من الوجهة العقلية بتقدم بعقيدة « اقرب الى الحق والصواب لارتكازها على اسس غير

مترجرجة لأوضح نتائج علم النفس» . والنظرية التي تعتبر الطبع جامداً هي من القضايا الفاسدة في حد ذاتها ، وهي من الخطأ المؤسف قد وضع ، كما علمنا ، اساسها قانت ومضى شوبنهور في الدفاع عنها

ويذهب بايو إلى اثبات تأثير الطبع كل مذهب ، ويرجع سبب فساد نظريات الشكوكيين إلى كسل الذهن ويظهر وهن تلك النظريات ويشرح تأثير سلطان القوى الشهوانية على النفوس ، تلك القوى التي شوّهت الحقائق ويقيم الأدلة على تعديل الطباع تعديلا تاما .

— كسل الذهن —

يقول بايو ان نظريات الشكوكيين تتراءى لنا كمثال غريب عن كسل الذهن ، ذاك الكسل الذي اصبح بمقام الخطيئة الأولى النازلة بالعقول الكبيرة . فجعلها تخضع لسلطان «الألفاظ» بلاادنى مقاومة .

ونحن جميعاً متعودون التفكير بواسطة الألفاظ إلى حد اصبحت تلك الأسماء تحجب عنا حقيقة مسمياتها . وتسوقنا وحدة اللفظ بصورة جبرية إلى الاعتقاد بوحدة الأشياء الحقيقية . ونحن مدينون بوجود فكرة جمود الطبع الى تلك الصورة الذهنية التي تولدها في عقولنا فكرة « الطبع » نفسها . ومن منا لا يرى في الواقع ان

الطبع ليس إلا قوة صادرة عن قوى شتى ؟ والقوة التي تصدر عن قوى غيرها هي بتطور وتعديل دائم . ولطبعنا وحدة شبيهة بوحدة اوروبة : فعملية التوازن ، ورقي أو انحطاط حكومة واحدة من بين الحكومات يعدل في شكل القوة . وتلك هي حالة ميولنا وشهواتنا وافكارنا التي هي في تطور مستمر ، والتي يمكنها من جهة ثانية ان تبدل في شدة القوة الصادرة عن مجموع تلك القوى أو تعدل في وجهتها بواسطة التحالف الذي تعقده تلك القوى المفكرة والمتخيلة والشهوانية فيما بينها ، أو تهدمه ...

— وهن نظريات الشكوكيين —

واذا ما تفحصنا الحجج الدامغة التي يتقدم بها الشكوكيون لاثبات نظرياتهم لوجدناها اوهن من خيوط العنكبوت . فلا نجد عند قانت الا نظريات مجردة عن كل اختبار . ولو لم يخلط بين مبدأ التقيد ومبدأ الجبرية لما قام لفكرة الحرية عنده سند ولانهار بنيانه إلى الحضيض (١) . ولا نجد عند شوبنهور إلا برقا خابا ، ونلاحظ عنده

(١) لقد جعل بايو القسم الثاني من هذا الفصل في كتابه تهذيب الإرادة ردا يشرح فيه معنى الحرية الإنسانية والفروق التي تميز التقيد العلمي عن مبدأ الجبر الديني او الرضوخ الجامد . ولا مجال للوقوف عليه لخروجه عن نطاق الموضوع الذي حددناه لهذه الرسالة .

ميلا غريبا لعرض محفوظاته والاكثار من الأسانيد التي يظنها الا ترد مع انه لا يقوم لأسانيده ادنى وزن. وهذه هي ادلته الوحيدة التي نلقاها عنده: ١ — اذا كان الطبع قابلا للاصلاح « كان يجب علينا ان نرى الشيوخ الذين يؤلفون نصف البشرية اكثر تشبعا من معنى الفضيلة من الشباب الذين يؤلفون النصف الآخر وهذا ما لا نراه ». ٢ — « اننا نحجب ثقتنا عن كل امرئ ظهر لنا منهُ الشرمرة واحدة، وهذا يثبت اعتقادنا بأن الطبع جامد لا يتغير »

فما معنى هذه الأدلة؟ وهل يجوز للمفكر ان يتلقاها كأدلة؟ تلك مزاعم يمكن ان يكون لها قسط من الصحة في بعض الوجوه لكن أي علاقة بينها وبين الحجج التي تثبت عجز كل منا عن تقصير طبعه؟ وهي تثبت ان اكثرية البشر لا يسعون سعيا حثيثا لاصلاح طباعهم، وهي تدلنا على ان ميولنا الشهوانية متحكمة بجميع شؤون الحياة، تفعل ما تشاء، بدون ان يكون لإرادتنا ادنى وساطة لردعها. وان معظم الناس يخضعون لتأثيرات خارجية في اقوالهم واعمالهم فينقادون لذوق العصر، ويجارون الرأي العام، فلا يفكرون أبداً في ادنى مقاومة.. وهل يمكننا بعد ذلك انكار الكسل العام المسيطر على ارادة معظم البشر! فيقضي معظم الناس

حياتهم في التفتيش عن مواردالرزق : فالعمال والفقراء والنساء والأطفال (ورجال العصر) جميعهم لا يعملون الفكرة أبداً في شؤون الحياة ، وليسوا الالعبا تديرها الأهواء كما تشاء ، وهم لعب حساسة ومعقدة التركيب. لكنهم جميعهم يستمدون مبدأ حركاتهم واعمالهم من روح الميول غير الاختيارية ، ومن وحي الوساوس الخارجية التي تلقى في قلوبهم. فقد خرجوا عن الحيوانية عن طريق النشوء والارتقاء البطيء ، وعن طريق الضغط المؤلم الذي ساقهم اليه تنازع البقاء ومع هذا فإذا ما خلت نفوسهم إلى شياطينها ، واذا لم تستحثهم ظروف الزمان جنحوا الى السقوط ، وقد حاد عن الطريق السوي هؤلاء الذين لا تتطلع ابصارهم أبداً إلى العلاء ، والذين لا يشعرون في نفوسهم بظمأ يدفعها إلى متابعة السير في سبيل تحريرها تحريراً تاملا من ربق الحيوانية وهووا إلى الدرك الأسفل. وليس بموجب دهشة ان نرى عدد الشيوخ الفضلاء لا يربو على عدد الشباب.

— الطبع يتبدل في اصوله —

ويقوم لحججهم وزن فيما لو اثبتت لنا وهن كل نضال أو ايدت الأناني إذا طمحت نفسه إلى القيام بتضحية هامة استحالت عليه. نا. ان مثل هذا التأكيد المجرد لا يستحق ان يبحث فيه. وقد

نشاهد الجبناء يقتحمون مخاطر الموت للحصول على المال ؟ ان اهواء النفس اذا ما استحكمت عراها يصبح الخوف من الموت هباء في نظرها . ألم نرَ الأنانيين يضحون بحياتهم في سبيل فكرة وطنية أو أي فكرة سامية اخرى ، اذا ما استحثت غيرتها حماسة موقتة ؟ وإذا حملتها حماستها الموقتة إلى مثل هذا العمل النبيل ، أين تصبح نظرية جمود الطبع ؟ فالطبع الذي لا يتبدل في اصوله ولو مدة نصف ساعة من الزمن لا يصح ان نعتبره جامداً . والأمل يظل عظيم في امكان اعادة هذا التبديل من حين إلى آخر .

وعلى كل اين صادف شوبنهور طباعاً متلاحمة ، واين هم هؤلاء الأنانيون الذين ظلوا على انانيتهم في جميع افكارهم وعواطفهم فلم نرَ أثراً في الطبيعة الانسانية لمثل هذه الوحدة البسيطة المتشابهة . اما الاعتقاد الذي يعتبر الطبع كوحدة بسيطة أو ككتلة متراصة متجانسة فهو يرجع الى ملاحظة سطحية لا أثر للصحة فيها . والطبع هو قوة صادرة عن قوى شتى لا تجانس فيها ويكفي هذا التعريف المبني على مشاهدة الرجال الأحياء ، لا على النظريات المجردة ، لهدم نظرية قانت وشوبنهور ومن كان على شاكلتهما .

٢ — الطبع الكسبي والتربية الذاتية

— التهذيب سبب اختلاف الطباع —

لم يذهب إذاً بايو، مع إيمانه بتأثير الطبع بالتهذيب الى انكار الطبع الموروث، بينما يحمل ايمان بعض الغلاة بنجح التهذيب الى الشك به، وهو اقصى حد ذهب اليه فريق المتقدين. وهلفاسيوس(١) هو من هؤلاء الغلاة. فيؤكد لنا ان الذي دفعه إلى هذا التعصب رغبته الشديدة في اسعاد بني الانسان، لا الميل الى الاتيان بآراء غريبة وقد حملته غيرته على التهذيب الى رفض النظرية القائلة بأن العبقرية والفضيلة هما هبتان من الطبيعة. ويرى في هذا الزعم السائد خطراً على مبدأ التربية والتعليم وايذاء له. تلك مغالاة لا نتسرع بالموافقة عليها لكننا نستعين بها لدحض مزاعم الشكوكيين المخيفة الذين ينكرون فوائد التهذيب. وعلى كل حال فاليقين خير من الشك.

وهو يرى سبب التفاوت الذي يرى بين عقول البشر ناتجاً عن التهذيب المختلف الذي يتلقونه، والقيود الخفية التي تربطهم

---

(١) هلفاسيوس Helvetius «١٧١٥ = ١٧٧١» فيلسوف فرنسي صاحب كتاب «الروح» وهو احد تلاميذ لوك فناضل مثله عن الفلسفة الحسية.

الى مختلف الظروف التي يوجدون فيها . ولما كانت وظائف العقل منحصرة في التأثر والتفكر والتأمل في علاقات الحوادث بعضها ببعض من جهة وعلاقتها بنا من جهة ثانية اصبح من البديهي ان نجد استعدادا للنبوغ والتفوق عند جميع الناس المتكاملة اعضاؤهم وعقولهم . . . لا سيا الذين اتصفوا برقة الشعور وسعة العرفان وقوة الانتباه اللازم للتحليق في سماء الأفكار السامية . أما تعليل قلة رجال العبقرية والنبوغ فهو يرجع الى مختلف الظروف الرديئة التي يوجد فيها معظم الناس . وهو لا يرى فائدة لتعليل هذا القحط في الرجال بالرجوع إلى التأثيرات الجوية واختلاف الهواء والحرارة والرطوبة ، لأنه لا يجد للطبيعة يداً في تكوين العبقرية ، بل يعتقد أن هبات الطبيعة لا تقوم مقام الاجتهاد والعمل . ولا يمتاز النابغة عن بقية الناس إلا باجتهاده واستعمال خطة منظمة لأعماله ، وحصر هذه الأعمال في الفن الذي خصص حياته له وصرف جهوده اليه . والرجل الذي يود ان يكون كل شيء لا يستطيع أن يتقن شيئا فيظل لا شيئا .

– تأثير شكل الحكومة في الطباع –

ولا مرية في ان لشكل الحكومة التي يعيش الناس في ظلها اثرا في ذلك التفاوت الذي نرى آثاره في طباع البشر . فإذا ابتليت امة

بحكومة مستبدة غاشمة فملأت الأفكار بسوء طريقتها جورا ، واماتت سنن العدل ، واستأكلت الرعيـة ، حات بها الشدائد والبوائق ، وصرفتها المحن والنكبات عن التفكير بورود مناهل السعادة ، لذلك تصم آذانها عن سماع نداء المخلصين . . . فشكل الحكومة وسعادة القرن الذي يولد الناس فيه او بؤسه ، والقواعد التهذيبية الحسنة و الرديئة التي يتلقونها ، هذه جميعها تشترك في احداث البون الشاسع بين الرجال . وليس الرجل إلا ثمرة الظروف المختلفة التي يكون قد نشأ فيها قبل ولادته وبعدها . وعلى هذا يصح القول ان واجب الجماعة يكون في وضع الأحداث والشباب في بيئة من شأنها انماء المواهب الكامنة فيهم حتى تزهر ، وتحمل لنا الثمرات الشهيـة التي يحق لنا ان ننتظرها منهم . واي بيئة اصلح لهذه الغاية من دور العلم التي ذهبت الأمم الحية الى تأسيسها في كل بلد وقرية للاعتناء بأجسام الناشئين وعقولهم .

— الحرية الذاتية —

ولن نقف طويلا على ما احب ستوارت ميل(١) ان يذهب اليه

---

(١) ستوارت ميل Stuart Mill (١٨٠٦ — ١٨٧٣) فيلسوف انكليزي وهو من دعاه الفلسفة الاختبارية وداع للفلسفة النفعية واهم مؤلفاته كتاب في المنطق وآخر في « النفعية » وهو يركز مبدأ الواجب على اساس السعادة العامة.

بمعقده الآمال الجسام على ابتكار علم جديد دعاه الايثولوجيا أو علم الطبع ، ولا على ما ذهب اليه المتعصبون للطبع الكسبي ، فأنكروا بعض الانكار وجود الطبع الغريزي وجعلوا الطبع ثمرة خالصة للتهذيب ونعتقد ان هذه المغالاة ليست منبعثة عن سوء قصد بل هي متأتية عن ايمان وطيد بامكان التهذيب . وهذا الجزم ، كما اسلفنا ، هو اقصى حد وصل اليه فريق المعتقدين .

ونسب بعضهم الى قضية التهذيب الذاتي اهمية كبيرة ، وفضلا عن اقرارهم بأن عمل المهذب له كل الأثر في نفوس الأحداث فإنهم قالوا ان المرء يستطيع ان يعدل في طبع ذات نفسه . وشاء شاتينغ ان يرى في النفس البشرية موهبتين هما جديرتان بتمهيد سبل التهذيب : الموهبة الأولى هي التي تستعملها النفس لدرس ذاتها والموهبة الثانية هي التي تسخرها النفس لتحسين ذاتها ... ونحن لا نستطيع السير وراء مواهبنا ، أو ان نرقبها فحسب بل باستطاعتنا قيادتها واعطاؤها قوة الحركة ، ومساعدتها على النمو ، وبامكاننا السيطرة التامة على افكارنا فنوقفها في سيرها او نحول مجراها ونوجهها من ناحية الى اخرى وبامكاننا ايضا حصر عقلنا في مواطن الاشياء التي نود فهمها والتطلع الى الكمال وتسخير الأشياء للوصول اليه .

— تعديل الطباع —

وكثيرون هم الذين بحثوا في قضية التهذيب الذاتي فكتب ادكار كينه Edgar Quinet مناضلا عنه في كتاب « الروح الجديد » وهو لا يجزم بتبديل الطباع تبديلا كاملا بل يقول بامكان تعديلها . لأن امر التبديل يجعل المرء ان يصطدم بالنواميس الطبيعية التي لا تعاكس . فيكون شأننا كمن يسعى وراء تحويل السنديان الى زيتون أو شجر التين إلى صنوبر . اما التعديل فهو ملازم للطبع والطبع في تعديل مستمر .

ثم يقول : وقد شاهدت كثيرين من الرجال الذين طبعوا على الغضب تتعدل طباعهم ، وكثيرون من ليني العريكة يصبحون حمقا والشجعان جبناء والجبناء شجعانا ، واصحاب المروءة والشهامة يتدنون والمتواضعين الودعاء يثورون حتى استحال علي الاعتقاد بجمود الطبع وثبوته . اللهم الا اذا تصورنا ان الانسان طبع على أن لا يكون له طبع !

ومن منا لم يرقب هذه الحالات كلها في من حوله . فكثيراً ما اثر الاستبداد في الطباع فقتل الشهامة والنخوة في نفوس الأفراد

والجماعات بينما نرى الايمان بعقيدة دينية كانت أو اجتماعية يحمل الأفراد والجماعات الهادئة إلى اقصى معاني الاستبسال والبطولة ·

— رأي النشوئيين —

لا نشك بعد الذي سردناه في ان للمهذب قدرة على تعديل طبع الطفل الذي اسنداليه امر تأديبه · ولهذا التعديل نصيب وافر من الفوز · كما ان المرء باستطاعته التأثيرفي طبع نفسه فيقذف في زوايا النسيان الميول الخبيثة الموروثة ويعزز السجايا الحسنة التي ورثها عن آبائه · وقد يعترض على ذلك بعض النشوئيين ومنهم الحكيم سبنسر (١) فهو لا ينكر امكان تأثر الطبع بالتهذيب ، لكنه يجزم ببطء هذا التعديل وهو ابطأ بكثير مما يتصوره الناس وهو يعتبر انه يمكن للافراد ان يكتسبوا عادات جديدة لكنها لا تخرج عن العادات ، أي مبادئ العمل في مقام طبيعة ثانية لا تستطيع القضاء على الطبيعة الأولى · فيصبح سلطان التهذيب الذي يستنبط عادات جديدة محدوداً جداً ، فلا يختلف عن ذلك الطلاء الذي اشار اليه

---

(١) سبنسر Herbert Spenser (١٨٢٠–١٩٠٣) فيلسوف انكليزي مؤسس فلسفة التطور في انكلترا . واهم مؤلفاته : المبادئ الأولى · مبادئ علم الحياة وعلم النفس والاجتماع والأخلاق . الفرد والحكومة , فناضل في فلسفته عن الفردية البحتة .

شوبنهور . لكن هذه العادات الفردية لا تذهب ادراج الرياح فتنتقل من الآباء إلى الأبناء بطريق الوراثة . فتصبح عند الأبناء اساساً موروثاً باستطاعتهم ان يزيدوا عليه مناقب جديدة . فتعترض اذاً نظرية سبنسر على نجح التربية الذاتية ، لكنها تبقى على امكان التهذيب في صيغته الأولى فيؤمن بامكان تغير الطبع لكنه في نظره بطيء جدا وهو من صنع الأجيال المتراكمة .

ونعتقد مع بايو ان اعتراض النشوئيين على التربية الذاتية مبالغ فيه ، ومن شأن هذا الرأي ادخال القنوط إلى النفوس لأن التلميذ لا يستطيع الاعتماد على عشرات الأجيال لاتمام تكوين نفسه ، ولا يملك الا عشرين سنة تكون نفسه فيها قابلة للتشكيل . ويقول بايو : واذا ما رغبت في الانصراف الى تحسين نفسي من الوجهة الأخلاقية فلا استطيع الى ذالك سبيلا . ويتعذر علي العراك ضد طبعي ، ذلك الطبع الذي اورثنيه اجدادي والذي هو من نتاج آلاف السنين أو ملايين السنين من التجاريب الراسخة في دماغي ، وما السبيل الى التغلب على هذا التحالف العظيم الذي يتألف من اجدادي ، وتراهم اذا ما حاولت الانفلات من جزء من تلك المواريث التي خلفوها لي تألبوا على ارداتي الشخصية الضعيفة !

فليس إذاً من المعقول ان احاول اعلان الثورة ، والهزيمة أمر محقق من الآن . فيمكنني مع هذا ان اجد لنفسي بعض العزاء بأنهُ يمكن لحفدتي بعد مضي خمسين ألف سنة ان يصبحوا بفضل تأثير البيئة الاجتماعية وتأثير الوراثة كآلات محكمة الصنع اشتركت في « تحضيرها » الأجيال المتطاولة ، فتخرج منهم التضحية والكرم وغيرهما من المناقب كما تخرج « الطحنة » من رحى الطاحون ...

ومما لا شك فيه ان السجايا الحسنة مثل الرذائل المستهجنة يمكنها ان تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء ، ويرى اثر هذه وتلك في طباعنا . ويمكن للانسان مع شيءٍ من الحذاقة ان يجد قوى موروثة « من خلفه » بقدر ما يجد منها عليه وليست المسألة إلا قضية كثرة أو قلة .

***

وخلاصة نظرية الحكماء المعتقدين هي ان سلطان التربية على النفوس عظيم فلا يستطيع المهذب ايجاد طبع للطفل فحسب بل يمكن للمرء اذا كبر ان ينجح في تهذيب نفسه . فالمعتقدون اذاً هم على طرفي نقيض من الشكوكيين وقد وفق الحكماء النسبيون بين هذا الجزم المتعصب وذاك الانكار المتشائم . فمن هم النسبيون ، وما هي نظريتهم ؟ هذا ما نحاول الكلام عليه في الفصل التالي .

الفصل الثالث

نظرية الحكماء النسبيين

من هم النسبيون

هم الحكماء الذين ارتكزت آراؤهم على علم النفس الاختباري . فشملت نظريتهم ما تضمنته اقوال الفريقين من شكوكيين ومعتقدين من الحقائق الثابتة ، ووقفت بينهما موقفا وسطاً . فلم يغمطوا سلطان التهذيب حقه ، كما فعل قانت وشوبنهور ، ولم ينفوا وجود الطبع الفطري كما ذهب الى ذلك المتعصبون لتأثير التربية المطلق . فأثبتوا وجود الطبع الفطري ووطدوا دعائمه على اسس الوراثة العلميـة ، واقاموا الأدلة على امكان تعديل هذا الطبع بالتربية والتعليم ومـا يحدثان فيه من تحويل جدير بالاهتمام ، فتتألف اذاً الشخصية من طبع نظري موروث ومن طبع صنعي مكتسب .

وقد رفع المسيو ريبو احد اعلام علم النفس الاختباري لواء هذه

الآراء المرتكزة على المعاينة والعرف واقتفى اثره فريق كبير من الحكماء والمهذبين . لكن المسيوريبوحدد سلطان التهذيب وحصر تأثيره في الطباع الوسط مستثنيا من ذلك النوابغ والبلهاء على حد سواء . وذهب مذهبه كل من مودسلي وموسو ، وهم جميعا على اتفاق تام مع داروين ومعظم النشوئيين . لكن العلامة جورج دوماس ، استاذ هذا العلم في جامعة السوربون بباريس ومعظم الذين توحدت جهودهم لاتقان هذا العلم لم يروا مبرراً لهذا الحصر .

ونبحث في هذا الفصل النظرية القائلة بتأثير الطباع الوسط ونشرح العوامل النفسية التي تتألف منها الشخصية الانسانية ، وهي وراثية فيتكون منها الطبع الغريزي ، ومكتسبة فيتأثر بها الفرد طيلة ايام حياته فتفعل فيه البيئة الطبيعية والوسط الاجتماعي اللذان يعيش في كنفهما ويؤثر فيه ايضاً العامل الشخصي .

وعلى هذا سنحاول الاجابة في هذا الفصل على الأسئلة التالية :

١ — هل تتأثر الطباع الوسط وحدها بالتهذيب ؟ .

٢ — ما هو الطبع الغريزي الموروث ؟ .

٣ — ما هو الطبع الصنعي المكتسب ؟ .

—*—*—*—

١ — اثر التهذيب في الطباع (١)

— الوراثة والتهذيب —

قلنا ان المسيو ريبو (٢) حدد سلطان التهذيب وحصر نفوذه في الطباع الوسط مستثنيا من ذلك النوابغ والبلهاء على حد سواء . وهو لا ينكر ما للعوامل الطبيعية من الفعل الناجع في تكوين الطبع . لكنهُ يخطئ رأي الغلاة بتأثير التهذيب المطلق ويرى من اللازم المطالبة بحق الفطرة ويعتبر ان الفطرة والوراثة هما شيء واحد .

وكان القائلون بالفطرة يعنون الأسباب الخفية التي لم يدركوا امرها . ويعني القائلون بالوراثة اليوم الأسباب الطبيعية التي تقع تحت الاختبار فلا فرق بين القولين والذي يجب اثباته هو ان تلك

---

(١) كتاب المبادئ الفلسفية للثقافة : مارتان وباربزو

(٢) ريبو Ribot فيلسوف فرنسي ولد في غيمفام ومات في باريس (١٨٣٩–١٩١٦) وهو عضو في مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية . ومؤلف لكتب قيمة عديدة في موضوع علم النفس الاختباري منها امراض الحافظة وامراض الارادة وامراض الشخصية وروح الانتباه وغيرها .

المناقب المنوه عنها موجودة قبل شروع التربية وتستطيع التربيــة ان تعدل فيها لكنها لا تخلقها أبداً .

والتهذيب امر خارجي ، وهو من العوامل التي تكون الطبع . والوراثة سبب داخلي ، وهي ايضا من العوامل الهامة التي تشترك في تكوينه . فلا يصح النظر الى احدهما دون الآخر . ويضع المتعصبون نصب اعينهم احد امرين لا ثالث لهما : اما ان لا يكون ادنى شبه بين الآباء والأبناء ، وفي هذه الحالة اين يكون ناموس الوراثــة ؟ واما ان يشابه الأبناء الآباء ، وفي هذه الحالة لا يجب ان نبحث عن حال خارج امر التهذيب .

ويذكر ريبو مثال دالامبير « ليضع حــداً لكل تعليل ناقص يستند الى عمل التهذيب » . ودالامبير هو لقيط حرم عناية والديه ووجد في ظروف رديئة ضيقت عليه سبل العمل . ومع ذلك فقد اوصله جده واجتهاده الى ان يصبح عضواً في « مجمع العلوم » ولم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره . فإذا افترضنا انهُ شبَّ وترعرع في حضن امه وامضى أيام حداثته بين الرجــال العظام الذين كانوا يرتادون مجلسها فسهلوا عليه حلَّ المعضلات العلمية التي برز فيها فــيا بعد ، فلا شك في ان المتعصبين لقضية التهذيب كانوا يعزون هذا النبوغ

العجيب الى فعل البيئة التي يكون قد نشأ فيها . مع انــه لم يكن شيء من ذلك .

– الطباع الوسط –

ويستند المسيو ريبو الى هذا المثال الوحيد ليجزم في ان تاريخ حياة مشاهير الرجال يثبت ضعف نفوذ التهذيب في طباعهم . فاما لم يكن لأساتذتهم عليهم ادنى تأثير ، واما كان لهم عليهم تأثير سيء . فلا يجوز الاطلاق بعرفه في امر التربية لأن لا فعلَ نافذاً لها الا على الطباع الوسط . فليس لها ادنى فعل في المجاذيب ، وتأثيرها على النوابغ معدوم على التقريب ، ولا يبلغ فعلها اقصى حد الا في الافراد الذين ليسوا من الأبرار الأتقياء ولا من الأشرار الأشقياء ، والذين هم كما تشاء الصدفة ، وقل التربية ، ان يكونوا . واذا كانت الطباع الحقيقية التي لها متانة الأحجار الكريمة لا تتغير ولا تتشوه فإن الطباع الوسط التي هي اكثر لينا تتأثر اكثر منها بالعوامل الخارجية فتتلقى عنها قسما من طباعها (١) .

ولم ينفرد العلماء المتأخرون باثبات عنصر الوراثة وفعله في النفوس

---

(١) من مقال للمسيو ريبو في المجلة الفلسفية عدد تشرين الثاني ١٩٠٢ صحيفة ٥٠٠

فقال عنه الحكيم مونتهني (١) كم هو تأثير هذه النقطة التي نحن منها غريب وعجيب ! فهي لا تحمل اشكال الجسم فحسب ، بل تنقل الينا افكار آبائنا وميولهم » . ومونتهني جد متأثر بالحكمة العربية على ما يلوح لنا من كلامه . ذلك لأن اقوال العرب في هذا المعنى كثيرة يضيق نطاق هذه الرسالة عن سردها أوسرد بعضها . ولم تتخذ الوراثة صبغتها العلمية الا في ايامنا الحاضرة فظهر على التحقيق ما هو فعل سلطان الآباء على الأبناء . وهذا امر لم يعد فيه ادنى مجال للشك فأصبح من الراهن ان الوراثة هي الناموس العام المسلم بهِ أما الذي يجب علينا التثبت منه في هذه الرسالة هو اذا كان الناموس على اتفاق مطلق ام نسبي مع مبدأ التهذيب ، وهل يمكن للطباع كافة ان تتأثر بهِ ؟.

— حدود التهذيب —

ذهب إذاً ريبو مذهباً نسبياً بين الشكوكيين والمتعصبين وجعل للتربية حدوداً لا يمكن ان تتعداها . وقد رأى غيره من الحكماء هذا الرأي وهم الذين دعوناهم بالنسبيين . فقال مودسلي في

---

(٢) مونتهني Montaigne « ١٥٣٣—١٥٩٢ » فيلسوف فرنسي له رسائل نيقة مشهورة وعرف عنه تعلقه بفلسفة حكماء اليونان منهم سقراط وكاتون .

مقدمة كتابه « الجرم والجنون » ما يأتي :

« مهما عظم سلطان التربية فهو على كل حال قوة محدودة . وحدودها كامنة في طبع الفرد الغريزي . فلا يستطيع العمل الا ضمن دائرة تحدها الحاجة الاضطرارية . ولا سبيل الى جعل الورد يحمل تفاحا ولا الصبير تينا . ولا يستطيع مخلوق ان يتجاوز حدود طبعه . ويستحيل غرس عقل او طبع له امل في البقاء طويل في تربة طبيعتها رديئة . . . فهي الوراثة الفردية في كل نطفة قسمة الفرد الخاصة به . . . ضعوا طفلين منذ ولادتها في ظروف واحدة وهذبوهما على مناهج واحدة فلا يخرجان بعد ذلك بعقل متشابه كما يخرجان بسحنة متشابهة ، اذ كل منهما يخضع لسنة النشوء فيكيف سلطان الوراثة كلا منهما ، وهما من نتاجه المتباين » .

ويقول موسو : « ان خرافة اللعنة الهائلة التي تنزل على رأس البريء قبل ولادته ، والبركة التي تظال النشء المقبل وهو لا يزال في صلب المستقبل ليستا عاريتين من كل معنى صحيح : فالقدر يخصص كلا منا بنصيب محتوم من الأشياء الموروثة » .

ولا ينكر هذا الحكيم الروابط الكثيرة التي تقرب بين الغريزة اي الفطرة وبين الوراثة . فيقول : ومن الثابت ان ابناء ذرية واحدة

لا يتشابهون كما تتشابه نسخ كتاب واحد . ويرى في غالب الاحيان بين الأخوان والأخوات تشابه كبير في خَلقهم وفروق عظيمة في خُلقهم على الرغم من وحدة التربية التي يكون الجميع قد تأدبوا بها ويصح ذلك حتى في التوائم الذين يندر وجودهم مثل الذين يولدون ملتصقين في اجسامهم . وقد تيسر لي ان ارقب احوال اثنين منهم مع الاستاذ فوبيني Fubéni فكانا ملتصقين في جهة جسميهما السفلى فلم يكن لهما سوى ساقين بدلا من اربعة . فوجدت تباينا عظيما في طبعيهما على الرغم من وجودهما معا على الدوام ومن مشاهدتهما في كل الظروف اشياء واحدة . فلا بد اذا من التمييز بين الطبع الموروث والطبع الشخصي والتفريق بين سماة العائلة وسيماء الفرد (١) .

ويستعين المسيو هوفدينغ بالنتائج التي يصل اليها المسيو ريبو دون ان يحاول دعمها بحجج جيدة كما لو كانت حقائق راهنة ويقول : زعموا احيانا (ويعني هلفاسيوس امس وستوارت مبل اليوم) ان المواهب العقلية على جميع انواعها تتأتى من اختلاف مناهج التهذيب وهذا الظن هو على نقيض من التجاريب التي اظهرت ما للتربية غالبا من التأثير على الطباع الوسط . ويثبت التباين العظيم الذي

(١) موسو « كتابه في الخوف » صحيفة ١٦٨ — ١٧٤

يحصل احياناً رغما من وحدة التربية وجوب البحث عن امور خفية اصلية ، وقد ذكر داروين اثباتاً لهذه النظرية مثال التباين الكلـي الواقع بينه وبين اخيه من حيث اتجاه ميولها نحو الأشياء بينما نشآ وتهذبا معاً .

ولا يكتفي هوفدينغ بالجزم بتأثير التهذيب عـلى الطباع الوسط فحسب بل يعين الحدود التي يصل اليهـا ذلك التأثير بقوله : لكل امر فطري صيغة الابهام وعـدم الاستقرار ، ثم تزيل التجاريب الشخصية عنه تلك الصيغة وتحدد له سبل نشأته وتعين له وجهتها : اما ما يسمونه مناقب فما هي على الغالب سوى سلسلة استعدادات اولية يوجد في كل واحدة منها قابلية الانقسام الى حلقات عـدة ، وعلى هذا نرى ميل الانسان لجمع الأشياء اساساً لأعمال البخيـل الذي يهمه جمع المال واساساً لمناقب المؤرخ الذي يجمع الحوادث ليستخلص منها عظة للناس . فالوجهة التي يتجه اليهـا كل استعداد تتوقف على التهذيب وظروف الحياة التي تحيط بهِ . وبيـنما يظن البعض امكان اكتشاف وراثة منقبة خاصة ، كثيرا ما تكون هذه قـد تأصلت في الأنسال الغابرة نظراً لاستعمال القوى في وجهة

معينة . فقد يكون سبب ذلك سواء في استمرار الانتخاب الجنسي أو من جراء التقليد أو من تأثير التربية (١) .

— ابن مسكويه وتهذيب الأخلاق —

وقد اهتدى ابن مسكويه الى معرفة ماهية الطبع الحقيقي قبل ان يتفطن اليها أهل اوروبا بقرون ووقف موقفا نسبيا فأقر وجود الطبع الموروث وايد فعل التأديب في النفوس . فلم يقبل اذاً برأي الذين يقولون بجمود الطبع الإنساني أو ان هنالك طبعاطبيعياً « لا سبيل للانسان الى التحول عنه » فيؤكد اننامطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل اليه بالتأديب والمواعظ اما سريعاً أو بطيئاً .
وهو يختار هذا الرأي « لأننا نشاهده عيانا » فيبني إذاً اختياره على المشاهدة والعرف وهو ما يتفق مع اصول علم النفس الحديث الذي لم يهتد إليه اهل الغرب الا في القرن الأخير . « ولأن الرأي الأول يؤدي إلى ابطال قوة التمييز والعقل والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين ، والى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق ان يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جداً (٢) .

---

(١) كتاب علم النفس الاختباري ، الترجمة الفرنسوية صحيفة ٤٤٢ — ٤٤٥
(٢) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه صحيفة ٢٥

ومما يثبت ان ابن مسكويه هو من فريق النسبيين قوله : « أما مراتب الناس في قبول هذه الآداب التي سميناها خلقا والمسارعة الى تعلمها والحرص عليها فإنها كثيرة ، وهي تشاهد وتعاين فيهم وخاصة في الأطفال ، فإن اخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذي انتهى في نشئه وكماله إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما في طبعه ، وانت تتأمل من اخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الآداب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر في بعضهم من القحة وفي بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده . ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف بهِ مراتب الانسان في قبول الاخلاق الفاضلة وتعلم معه انهم ليسوا على رتبة واحدة وان فيهم المواتي والممتنع والسهل السلس والفظ العسير والخيّر والشرير . والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب لا تحصى كثرة . واذا اهملت الطباع ولم ترضَ بالتأديب والتقويم نشأ كل انسان على سوم طباعه وبقي عمره كله على الحال التي كان عليها في الطفولية وتبع ما وافقه في الطبع . اما الغضب واما اللذة واما الزعارة واما الشره واما غير ذلك من

الطباع المذمومة » (١) .

– نفوذ التهذيب في الطباع كافة –

لم يعد من شك في وجود اصل وراثي أو طبع فطري عند كل فرد من البشر فتتخذ هذه الفطرة وجهة معلومة بفعل التربية التي تظهر بصيغة عمل خارجي ومهما اختلفت ظاهرات هذا العمل فهو نوع من انواع التهذيب . واذا كان التهذيب ناجعا في الطباع الوسط فاذا لا ينفذ في الطباع العليا والدنيا ؟ .

اننا نؤمن بإمكان التهذيب ونجحه في كافة الطباع السليمة . لأن الطبع الكسبي ينشأ على اساس الموروث كما ينشأ البرعم على جذع الشجرة الملقحة به ، فيبقى الجذع هو عينه لكن النبتة تحيا حياة جديدة وتحمل لنا اثماراً يانعة شهية . فيكون اذاً قد حسّن الطبع الكسبي ما هو معروف في روح الانسان . وهذا من فعل التأديب والتأديب فن . وهو يخضع الطبيعة ويسخرها لمقاصده (٢) .

وقد قيل ان التربية لا تخلق السجايا النفسية ، وانها جميعها مدينة للوراثة (٣) وفي هذا القول مافيه من المبالغة والاطلاق . ولا

---

(١) تهذيب الأخلاق صحيفة ٢٨

(٢) راجع رسالة الثقافة والتهذيب صحيفة ٣٤ وما يليها . (٣) ريبو

يجوز الاطلاق في استعمال لفظ الخلق سوا[illegible] اثة أم للتربية . فالوراثة تثبت وتوءلف بين بعض المناقب التي [illegible] على الغالب من صنع التربية نفسها (١) . كما انه لا يجوز [illegible] تجمع التهذيب في الطباع الوسط لتعذر ايجاد العبقرية عند [illegible] الناس بصورة مصطنعة . اجل اذا لم يدّع التهذيب بامكان [illegible] العبقرية بصورة مصطنعة فإنه يستطيع انماءها . وكلما كان المرء مطبوعا على الذكاء كان على استعداد ليتعلم ويصبح عالمًا بالتهذيب ، وكلما كان مطبوعاً على الكرم كان على استعداد ليكون شجاعا بالتهذيب وهلم جرا . فلنعتقد ان العبقرية بامكانها ان تحقق في وقت واحد اقصى حدٍ للوراثة والتربية المنتجة والسرعة المكتسبة ليست سوى شرط جديد لاكتساب سرعة غيرها (٢) .

فلا يوجد التعليم عبقرية عند من لا عبقرية له لكن يمكن ان يسدي للمتعلم مبلغاً عظيما من المعارف والمناقب . أما العبقرية بلا تأديب فتظل عقيمة (٣) .

ويقول فوييه في مقدمة كتابه (التعليم من الوجهة الوطنية)

---

(١) غيو : التربية والوراثة صحيفة ٤٧ . (٢) هوقدينغ .
(٣) فوييه : التعليم من الوجهة الوطنية .

ما يلي : تولد العبقرية وتنمو باتحاد ثلاثة عوامل : الأول انتقال سجايا الجنس وبالأخص سجايا العائلة بواسطة الوراثة ، والثاني الحوادث السارة والظروف الخاصة التي تجتازها الحياة في دورها الأول كنطفة وجنين ، والثالث تأثير البيئة الوطنية والتربية القومية .

فلا مرية في ان كل شيء في هذا البحث تابع للوجهة التي يكون الانسان قد طبع عليها فتعين التربية تلك الوجهة بعد ان تكون الوراثة قد انارت لها السبيل . فلم يعد تأثير التهذيب منحصراً في الطباع الوسط فحسب بل هو نافذ في الطباع العليا ايضاً ، بل هو يؤثر في الطباع كافة . أما المجاذيب فهم مرضى وكلامنا يطلق على الطباع السليمة وليس على المريض حرج . فلم يعد التهذيب قوة اضافية لقوى الوراثة بل هو قوة فعالة من شأنها تعيين وجهة خاصة للميول الغريزية وتعديل مزاج الفرد وبالتالي تعديل الطبع الجنسي ايضاً .

ولا بدّ لنا من ان نلفت نظر المسؤولين عن سياسة الأمم الشرقية إلى العاملين الثاني والثالث اللذين يشير اليهما العلامة فوييه فقد عينا الأهمية العظيمة التي يجب على كل حكومة الاضطلاع بها للاعتناء بصحة الأمهات بوجه خاص وصحة افراد الأمة جمعاء بوجه عام ، والاعتناء بمدارسها التي يردمنا هلها افراد الأمة ، فالتربية القومية

هي بنظره من العوامل الهامة التي تساعد على ايجاد العبقرية ونحوها .
واذا ما افقر الشرق من النوابغ فما ذلك الا لضعف التربية القومية منه ، ولعدم الاعتناء بالصحة العامة اعتناء صحيحاً فيجب على كل أمة ترغب في الحياة ان تعني بصحة اجسام ابنائها وعقولهم منذ تكونهم في بطون الأمهات كنطفة وجنين .

والآن اننا سنطلع على معنى الوراثة كما اقره علم النفس الاختباري فيتم لنا فهم الطبع الغريزي . ثم نتكلم عن العوامل التي تشترك بتأليف الطبع الكسبي فيتضح لنا معنى ما قلناه في بدء هذه الرسالة : ان الطبع لا ينفصل في جوهر معناه عن روح الإنسان الخاصة .

٢ — الطبع الغريزي (١)

— لزوم البحث الاختباري —

لقد اطلعنا في الفصلين الأول والثاني من هذه الرسالة على الجدل الذي استثاره تباين نظريات الحكماء في تحديد ماهية الطبع ٠ واذ ما ضربنا صفحاً عن المحاجة اللفظية التي انصرفت الى وجهات مختلفة في تعريفه نظل أمام رأيين متناقضين ٠ فيقول اصحاب الرأي الأول « الرجل كله في لفائف مهده » وهم الفريق الذي يجزم بجمود الطبع ويشك بنجع التهذيب ٠ ويجيبهم اصحاب الرأي الثاني بقولهم « اننا جميعنا نولد متساوين في الروح والطبع فيجعل التهذيب هذه الفروق التي نشاهدها بين الناس » ولا يمكن وضع حل لهذه

---

(١) اخذنا مواد هذا البحث والذي يليه عن كتاب علم النفس الذي اشترف على تأليفه العلامة جورج دوماس استاذ علم النفس الاختباري في جامعة السوربون بباريس فاشترك في كتابة مباحثه خمسة وعشرون عالما . فجاء الكتاب أكبر موسوعة في هذا العلم واوثقها حجة . وهذا المبحث هو بقلم الاستاذ بوير ٠

المعضلة الا بالمعاينة وسنحاول ان نظهر هنا كيف يمكن تحديدهـا بنصوص مبنية على علـم النفس الاختباري، ولنفرض اننا وجدنا في عائلةما استعدادا أوخاصةنفسيةاستثنائية ، وان هـذا الاستعداد أو تلك الخاصة تظهر من ذرية الى اخرى ، فيحق لنا الجزم بأنها ليست من نتائج الصدفة أو الطوارئ الخارجية ، بل هي ظاهرة من ظاهرات الاستعداد الوراثي في الفرد . وهذا بلا شك عنصر اول يرجع اصله الى الطبع الغريزي ، اي ان تلك الظاهرة التي تجلت في الفرد هي وراثية . لكن هل هنالك عناصر اخرى تتعلق بالطبع الغريزي؟

يؤكد لوكاس Lucas ان علاقة الذرية بعلم الحياة تخضع لناموسين : الغريزة والوراثة . وقد يوجد بصورة مستمرة بين اخص نص الغريزة ما هو خارج عن مفعول الوراثة . وانما الطبيعة تخلق وتخترع على الدوام بواسطة ناموس الغريزة ، بينما هي تتشابه وتتكرر دوما بواسطة ناموس الوراثة. فانتقد ريبو هذا التصور النظري وهو مع ذلك يقر وجود حالات غريزية ، وهو يرجع أمرها الى اسباب عرضية وينظر الى الوراثة كناموس عام له بعض الحالات الشاذة . فيقع ريبو في جزم غريب يشابه بعض الشبه قول لوكاس . إذ كيف يمكن لناموس علمي ان يتضمن حالات شاذة ! ومن

خصائص النواميس العلمية الاجماع والشمول العام ، ولا سبيل الى حل هــذه المعضلة إلا بالتعمق في قضية الوراثة وبالأخص الوراثة النفسية .

– معنى الوراثة –

وذهب العلماء في الأكثر إلى تحديد الوراثة بقولهم « انها انتقال خصائص ومناقب طبيعية أو مكتسبة من الآباء بطريقة التناسل الجنسي». وذهب ريبو في تعريفها مذهباً أعم فقال : « انها الناموس الحيوي (نسبة إلى علم الحياة Biologique) الذي يسمح للأحياء ان يتجددوا في اعقابهم . فالوراثة هي للنوع مثلما هي وحدة الذات للفرد» . فتصبح مشاكل عدة لقضية الوراثة ، بفضل هذين التحديدين ، سهلة الحل لما فيهما من الإبهام في التعبير . فلفظ « الخصائص والمناقب » في التحديد الأول ولفظ « التجدد » في التحديد الثاني يعاونان على ذلك . ووضوع فكرة الوراثة هي في تتمــة مباشرة في المعنى الواسع أو المحصور الذي قد نعطيه لجملة « المناقب التي تتجدد » . أمـا الذي يمكن تجدده فهو مفعول أو عارض تشريحي معلوم نستطيع وصفه أو رسمه . مثال ذلك وجود

مولود بست اصابع بدلا من خمس (١) أو قد يكون استعداداً أو خاصة معينة بالتحقيق سواء أكان ذلك الاستعداد أو تلك الخاصة يرجع امرها إلى احدى القوى النفسية مثل الميل للفن الموسيقي ، أم تتعلق بحاسة دون غيرها من الحواس مثل الصمم والبكم . وقد يكون التجدد ظاهرة معينة لها حالات تتعلق بعلم الأمراض وتعليلها فتكرر هذه الحالات بنظام وقدر محتوم مثل بعض الأمراض العصبية المعروفة في علم الطب بمرض فرايدريخ أو مرض طومسن . وقد يكون بظهور مرض حقيقي ذي اعراض مختلفة تصيب اعضاء الجسم بلا تمييز ما مثل الأمراض الزهرية ، واخيراً قد يكون هذا المرض متأصلا في حالة الإنسان الأساسية مثل الأمراض العصبية .

— اقسام الوراثة —

وهنالك اقتراح بتقسيم الوراثة إلى وراثة « متشابهة : وهي التي ترى خصائصها عينها في افراد العائلة ووراثة «متحولة » وهي التي تتحول

---

(١) جاء في الصفحة الأولى من مجلة الدنيا المصورة التي تصدر عن دار الهلال بمصر في عدد الاربعاء ١٩ فبراير ١٩٣٠ رسوم لأهالي قرية تقع على مقربة من مدينة مدريد عاصمة اسبانيا تدعى بالازديلوس . ومن عجائب هذه القرية أن أكثر سكانها لهم ست اصابع في كل يد بدلا من خمس . وقد تجاوز بعضهم هذا العدد فيكون عدد اصابع يده سبعاً او ثمانياً كما يشاهد في الرسوم المذكورة .

إلى شكل غير شكلها الأصلي في انتقالها من الآباء الى الأبناء ، ووراثة (متباينة) وهي التي يوجد فيها اختلاف كبير بين المنقبة المتأصلة في الآباء وبين التي تظهر في الأبناء . ولا يجوز الاطلاق في مثل هذا التقسيم ، وعلى كل حال ، هنالك منقبة تنتقل ، لكنها منقبة ذات صيغة عامة ، فإذا شاهدنا مثلا في عائلة ذات مزاج عصبي سريع التأثر حادث جنون معجل أو حادث عصبي موقت ، فمن الخطل ان نعتبر الوراثة متحولة أو متباينة . فيجب القول ان الذي انتقل بالوراثة هو استعداد خاص للجهاز العصبي فأحدث هذا الاستعداد عند الواحد حادث جنون معجل وعند الآخر حادث عصبي موقت ، إذ ليست الوراثة انتقالاً صرفا لمناقب الآباء إلى الأبناء وإنما هي تكرير للمناقب التي لها صيغة عامة عند الفرد والتي لها في الغالب تركيب كيماوي خاص . ولهذه الخصائص العامة ظهور في اشكال وصيغ متنوعة . وقد يفهمنا هذا التنوع معنى الحالات الشاذة التي ذكر ريبو امكان وقوعها في ناموس الوراثة .

— اشكال الوراثة —

واننا لنفقه بصورة اجلى معنى تلك الحالات الشاذة إذا بحثنا في اشكال الوراثة . فهي تنقسم من حيث اشكالها الى وراثة «مباشرة»

وهي التي يحصل في ما الانتقال من الوالدين إلى ابنائهما ، وإلى وراثة « مداورة » فتتأتى من الجدود متنقلة إلى الحفدة بدون ان تظهر في الابناء ، وإلى وراثة خط القرابة غير المستقيم ، فيظهر الطبع في الأخ والأخت وفي العم والخال وهو التشابه الذي يقع بين ابناء الأخ وابناء الأخت والأعمام والأخوال . وقد تكون الوراثة من « الطرف الواحد » فتنتقل من أحد الأبوين دون الآخر ، او « ذات الجانبين » فتتأتى من كلا الوالدين على السواء او « مشتبكة » فتنتقل من جنس إلى الآخر من الذكور إلى الإناث وبالعكس .

وإذا ما رجعنا إلى الإحصاء الذي يعين اشكال الوراثة التشريحية أو النفسية أو المرضية يتبين لنا أن هنالك ناموساً لكنه غير مستقر على حالة واحدة وهو كثير التلون والالتواء ، وقد تنقلب الوراثة المباشرة إلى وراثة مداورة . ولا بد من التساؤل عن أسباب عدم استقرار انتقال الطباع في بعض الأحوال دون غيرها ، وظل هذا الأمر سراً غامضاً مدة طويلة من الزمن حتى ظهور نظرية مندل . فوضعت هذه النظرية اساسا لقضية الوراثة في علاقتها بعلم الحياة . وهي التي ستنير الشبهات الحائمة حول قضية الوراثة الانسانية في الوثبت صحة انطباقها عليها .

– نظرية ماندل –

ترتكز هذه النظربة على الأسس التاليـة : ادا جمعنا بصورة مستمرة بين نبتتين مختلفتين في ميزة أو ميزات عدة ، فتنتقل الميزات المشتركة بدون ادنى تعديل إلى النباتات المتولدة من هذين الجنسين والى اعقابهما ويختلط بعض خصائصهما المتباينة وينتج عنها اشكال وسط أما اذا وجدت خاصة لاحدى النبتتين الأصليتين اقوى من خاصة اخرى ، فتتفوق القوية على الضعيفة ، وتُدعى الخاصة القويـة «بالطبع المتغلب» وتدعى الضعيفة « بالطبع الخفي » واذا تتبعنا الذريات الناتجة عن هذين الجنسين المختلفين يظهر لنا الطبع الخفي منذ الذرية الثانية ويكون ظهوره بحسب نواميس ثابتة باستطاعتنا ان ندل عليها بعبارات ثابتة ثبوت الأرقام الرياضية . فإذا جمعنا مثلا بين نبتتين من الفوم (البازيلا) لون حب احداهما أخضر ولون حب الثانية أصفر فيأتي حب النبتة المتوادة من هذين الجنسين أصفر بينما تجيء ذريات النبتة الجديدة على الصورة الآتية : ربع نتاجها يأتي اخضر اللون وتظل ذراريها محافظة عـلى اللون الأخضر بشكل دائم . وثلاثة الأرباع الباقية تأتي صفراء ، منها ربع يظل على اصفراره وينتقل لونه بصورة مستمرة الى ذريته ، والربعان الآخران يتكيفان كما تتكيف

النبتة الأولى المتولدة من جنسين مختلفين . ويجري هذا التعاقب مع المحافظة التامة على طباع وخصائص كل فئة ، مثلما هو مبين اعلاه ، كما لو كانت الحجيرات التناسلية حاملة في صميمها جرثومة ذراريها بقدر محتوم (١) وتصبح هذه النواميس اشد تعقيداً إذا استعضنا بنبت متعدد الخصائص عن نبت ذي طبعين مختلفين ، واذا استبدلنا طريقة التوليد الذاتي (٢) بطريقة التوليد المختلط أي المبني على تزويج الجنسين ومما لا مرية فيه هو ان ناموس ماندل يزيح اللثام عن حادثات كان حتى الآن يكتنفها الغموض : منها الوراثة بعلاقتها مع الجد والحفيد ، ومنها انتقال المناقب بالوراثة المباشرة عند بعض الأبناء وعدم انتقالها عند البعض الآخر ، ومنها ولادة ابن متوقد ذكاء من ابوين على غاية من البلاهة وغير ذلك من نوع هذه الحادثات التي تذكر ، لكن لم يقم الدليل القاطع على ان نظرية ماندل التي يصح انطباقها

---

(١) يؤكد مورغان ان لهذه الجرثومة وجودا راهنا في قلب الحبة . ولا تزال هذه النظرية الجذابة التي تستند الى بعض التجاريب موضوع البحث الشديد فلم يسلم بها اجماع العلماء .

(٢) لا ان لوجود التوليد الذاتي الا عند بعض الحيوانات السفلى .

على حالات كثيرة في عالمي النبات والحيوان تنطبق على الانسان(١)
وقد حاولت التجاريب الحديثة ان تثبت انتقال بعض الامراض
العائلية طبقا لهذا الناموس فمالت الى اعتبار الاجسام العصبية من
طبقة الطباع التي يعتبرها ماندل من النوع الخفي ولا يزال العلم ينظر

---

(١) ظهر حديثاً للعالم أبرت Apert مؤلف يعلل فيه خصائص الأمراض العائلية وفاقاً لنظرية ماندل – تلك الأمراض التي يصاب بها أفراد كثيرون في العائلة الواحدة فتظهر عوارضها في العائلة في عين الشكل الذي تظهر فيه عند كل فرد من افرادها المصابين . وتتبع في نشوئها الطريقة عينها عند كل مصاب سواء . فتصبح كأنها نتيجة لوصمة صلية ويظهر جرثومها اثناء نشوء الفرد ونموه بقطع النظر عن اي عامل لمرض خارجي . ويقسم ابرت هذه الامراض الى ثلاثة اقسام : ١ (امراض الابوين) فتنتقل مباشرة بصورة مستمرة من الآباء الى الابناء مثل الحالة العصبية التي تطرأ على بعض الاحداث فيأتون بحركات كثيرة غير مقصودة وتتبع في سيرها خصائص ناموس ماندل في الصيغة التي اختص بها الطبع المتغلب . ٢ (امراض الاخوة) مثل البكم والصمم والجهر فتتجه في نموها طبقا لناموس ما ندل في الصيغة التي اختص بها الطبع الخفي فتختفي في بعض الذراري وتبين في البعض الآخر . ٣(تنتقل بعض الامراض العائلية بواسطة الجنس وذلك اما اصابتها النساء كافة في نفس العائلة واما بانتقالها الى الذكور بواسطة النساء مع بقاء اولئك سالمات فيصاب بها اولادهن فقط مثل حالة التريف الدموي . وقد قرب الاميركيون هذا القسم الاخير من حادثات الوراثة المرتبطة بالجنس التي اتقن درسها مورغان في ابحاثه العلمية .

الى نظريات ما ندل كقياسات فرضية في ما يعود الى تعميمها على النوع الانساني ·

— تطبيق ناموس ماندل على عالم النبات —

وظل العلماء في غفلة عن قيمة اعمال ماندل العلمية ردحاً من الزمن ثم انتبهوا اليها حوالي عام ١٩٠٠ وانصرفوا إلى الأبحاث التجريبية المنظمة فقلبت اختباراتهم قضية الوراثة رأساً على عقب واكتشفوا افقاً جديداً اخذ الباحثون في التوغل فيه وذهبوا في تحليل عناصر هذه المعضلة تحليلا وافيا ونحن نلخص هنا النتائج التي وصلوا اليها ·

يجب ان نوجه الأنظار شطر عالم النبات ليتسنى لنا درس الوراثة في صيغتها البسيطة فنعثر على اعقاب خاص لا اختلاط فيها ولا اشتباك · ونرى للفرد نوعين من الخصائص منها ما هو « متقطع » مثل وجود الأشواك أو فقدانها أو وجود قابلية اذخار المواد النشوية أو السكرية · · · ومنها ما هو « مستمر » مثل الحجم والوزن وغيرها · وقد اثبت الاختبار ان الوراثة أمر محقق في هذين النوعين من الخصائص لا تبديل له لا سيما اذا وقع الاختيار على نبات مولد من الاعقاب الخلص عينها · وهذا هو

الشكل الصحيح للوراثة . وهو المثل الأصلي الذي لا شائبة فيه .
ولا بدّ لنا من التمييز بين الخصائص في صيغها المتقطعة والمستمرة ،
ويتعلق هذا المثال الأصلي ، الذي اصبح نموذجاً صحيحاً للوراثة
الشاملة ، بخصائص النبات في صيغتها المتقطعة . فلا يصح هذا الاطلاق
في قاعدة الوراثة إذا تناولنا بحثها في صيغها المستمرة . فالخصائص
حينئذ لا تنتقل بكاملها بل هنالك حدّ وسطي لها أو حد يقرب من
الوسط . واذا تتبع الملاحظ نسل الأفراد وشاهد في الذرية الأولى
ابتعاداً عن الحد الوسطي فإنهُ لا بدّ لأعقابها من الرجعة اليه .

هذه هي الوراثة في أبسط صيغها . واذا ما حاولنا تلقيح افراد
منتسبين إلى ذريات مختلفة نحصل على تنوع مختلف مثل ذاك
التنوع المتولد من جنسين مختلفين الذي حصلنا عليه في تجربة ماندل
وقد تكون تلك الذرية المتولدة من جنسين مختلفين عقيمة .
وقد يوجد في الذرية نفسها افراد من الجنسين كثيرو الولادة ففي
تلك الحالة يحصل الاختلاط بين طباع الأبوين بنسبة على شيء من
التوازن ، تلك هي الوراثة المختلطة .

وقد تحقق الوراثة في بعض الحالات حداً وسطاً في انتقال
الخصائص من الآباء إلى الأبناء . وقد يوجد في بعضها اشتباك

بين الخصائص الموروثة من كلا الأبوين وهي الوراثة المتنوعة التي دعاها نودان Naudin بوراثة الموزاييك (وهي التي تتألف من عدة خصائص مختلفة الأشكال كالقطع الرخامية المؤلفة من عدة حجارة مختلفة الألوان) وقد يوجد ايضاً في البعض الآخر انتقال خصائص احد الأبوين دون الآخر وهي وراثة الفريق الواحد . واخيراً قد يقع لبعض الخصائص ان تظهر عند الحفدة بعد اختفائها زمنا طويلا كان أو قصيراً ، فتظهر بحسب النواميس التي عينها ماندل بأرقام محدودة وهي الوراثة المداورة أو المتناوبة التي مرّ الكلام عن كيفية وقوعها.

— تطبيق ناموس ماندل خارج عالم النبات —

ان هذه الاختبارات ، التي اجراها العلماء في عالم النبات حيث تسهل المراقبة والتجاريب لقصر المدى الذي يتطلبه نشوء النبات ونموه ولسهولة اجراء التحقيق على انواع كثيرة منه ، ان هذه الاختبارات تسمح لنا ان نتفهم معنى الوراثة في مباديها العامة وتسمح لنا ايضا ان ندرك صعوبة قضية الوراثة وتعقيدها فيما لو رغبنا في استقصاء امرها عند الحيوانات العليا لا سيما عند الانسان . وتوضح لنا هذه الصعوبة شيئا من الغموض الذي يرى في الحالات الشاذة وعدم النظام الذي يظهر في قضية الوراثة بعلاقتها بالانسان .

ولامراء في ان عدداً كبيراً من المناقب النفسية له قابلية الانتقال بواسطة الوراثة من الآباء إلى الأبناء . تلك حقيقة لم يكن ليجهلها حتى القدماء في العصور الغابرة . وهنالك ظاهرات عدة تثبت هذا الأمر وتعاون على الجزم فيه . ونرى ان الاستعدادات الفطرية التي تعرف بالغرائز في عالم الحيوان هي محض وراثية . وقد دلّ التحقيق الذي اجراه العلماء اخيراً على ان انتقال بعض الغرائز يخضع لناموس ماندل . لكن لا يزال الاختلاف قائماً حول امكان وراثية الاستعدادات المكتسبة فلم يتفق العلماء بعد على امكان انتقالها الى الأبناء .

وقد اشرنا في هذه الرسالة الى ارتباط الطبع بالمزاج ارتباطاً وثيقاً فالوراثة النفسية تتعلق من احدى نواحيها بالوراثة التشريحية اي العائدة لعلم الأعضاء . ولا لبس على ان هذه الوراثة الأخيرة هي من الحقائق الراهنة . ويحمل الينا علم الأمراض الجسمية حججاً دامغة لا تقبل النقض فدعمت صواب علاقة تكوين الأجسام في ظاهرات الطباع . ونحن مدينون لموريل **Morel** في اسناد هذه الفكرة الى اسس علمية ، تلك الفكرة القائلة بتأثير تركيب الجسم الانساني على ظهور الأمراض العقلية في الفرد ونموها . وما اكثر انتقال حادثات الأمراض العقلية بالوراثة . وهي ترتكز في معظمها على

اسس الوراثة « المتباينة » أي العوارض التي تنتقل ليست مرضا معينا بل هي على الغالب استعداد خاص للجهاز العصبي يجعله هدفا لجميع ألوان الخسف والانحطاط . وقد اثبتت التجاريب العلمية الحديثة ان ناموس ماندل ينطبق على العائلات المبتلاة بالأمراض العصبية. لكن تلك التجاريب لم تبلغ حتى اليوم الدرجة التي تسمح لنا ان نجزم بشيء قطعي في هذا المعنى . واخيراً فإن مراقبة الأفراد المعدلي الأمزجة تثبت حقيقة انتقال بعض المواهب النفسية من الآباء إلى الأبناء . ويشرح لنا ريبو تأثير فعل الوراثة سواء اكان في المواهب المختصة بالحواس أم بمواهب الذكاء العليا . والى ذلك يرجع وجود عائلات متقنة الفنون كل الاتقان فينبغ فيها المصورون والشعراء والموسيقيون والأدباء والعلماء ورجال السياسة والقواد الخ . ولا يزال متعذرا جعل حد فاصل بين مفعول التربية وتأثير العوامل الطبيعية كما انه يصعب معرفة العلامات المشتركة التي تقرب الأفراد في الأمة الواحدة بعضهم من البعض الآخر ، اذا كانت ناتجة عن العنصر نفسه أو من تشابه شروط الحياة التي يعيشون فيها أو هي من فعل الوراثة فتنتقل إلى الذريات المتعاقبة . ومع ذلك لم يعد من شك في وجود اول جلي عن طريق الوراثة للمواهب النفسية في حالات

كثيرة مثل الحافظة والتخيل والذكاء والعواطف والشهوات والارادة.
وقد حاول بعضهم (١) تحديد هذه القضية بالضبط فوضع جدولا
مطولا بالاستعدادات النفسية الموروثة . والمهم في نظره هو
الشكل الخاص الذي تتخذه كل حادثة من هذا النوع وهذا اجدر
بالاهتمام من قضية الوراثة نفسها التي لم يعد ادنى شك في وجودها.
ومن المأمول ان توجه المختبرات العلمية اهتمامها الى سبر غور هذه
الناحية من الموضوع ، وتدقق في درس حادثات لعائلات كثيرة
وهو لا يزال برنامجا نأمل اخراجه الى حيز العمل والتحقيق .

— اعمال المختبرات العلمية —

شاء غالتون Galton ان يقدم على تحقيق هذا البرنامج فحصر
غايته في تنظيم استقصاء واسع النطاق يرتكز على اسس علمية
للبحث عن طوارئ الوراثة في الانسان املا بالوصول الى نتائج
عملية فأسس لهذه الغاية في لندن مختبراً لمراقبة الأنسال وتحسينها
واسند ادارته الى بيرسن Pearson وماعتمت بقية البلاد ان اقتدت
بالعاصمة الانكليزية. وشرع كل من كارل بيرسن في انكلترا
وهايمنس وويرسما في هولاندا ودافنبورت ومعاونيه في الولايات

---

(١) سو العالم جوريهو فيسي " " ١٠٩

المتحدة الأميركية في الانصراف الى تحقيق هــذه الغاية . ويتفق هؤلاء العلماء على الاجمال في النتائج التي اوصلتهم اليهـا ابحاثهم . وهم يقولون ان المناقب النفسية تنتقل الى الأبناء بالوراثة مثلما تنتقل اليهم المزايا الطبيعية وهذا من الأهمية بمكان عظيم .

ويؤكد علماء اميركا عقيب ابحاث دافامبور ان المزايا النفسية تتبع في انتقالها بالوراثة عين الطريقة التي ادلى بها ماندل . فاستخلص الاميركيون من هذه الأبحاث عدة تطبيقات عملية ، ربما كانت سابقة لأوانها لأننا نميل الى الاعتقاد ان ابحاث دافامبور لم ترافقها روح النقــد اللازمة التي يتطلبها الموقف ومن هذه التطبيقات درسهم المناهج التي توفق بين القوانين المعمول بها في الولايات المتحدة والنتائج الجديدة التي وصل اليها العلم .

وبالرغم من وجود جمعيــة لتحسين الأنسال في فرنسا نستطيع القول بأن هذه القضايا كافة لا تزال مجهولة على التقريب .

— الخلاصــة —

وعلى هذه الحال التي اوردناها فإن الانسان يرث عدداً كبيراً من الخصائص يوم ولادته . ولا يلزم الاكتفاء بأن نأخذ بعين الاعتبار في هذا الإرث العلامات المشتركة بينه وبين آبائه

واجداده بل يجب ان نضم اليها أيضا جميع المؤثرات التي قد يتأثر بها من اسلافه كافة . فالوراثة كما علمنا لا تفيد المماثلة . وهنا لا بدّ لنا من ان نتساءل عن الأهمية التي يجب ان نعيرها لتلك المبادئ التي سلمنا بصحتها في تشكيل الشخصية الانسانية .

ليس بالمستطاع الآن اعطاء الجواب على ذلك بالضبط . واذا كان بإمكاننا ان نعتبر بلا تردد من الطبع الغريزي تلك العناصر التي تكرر بعض العلامات المختصة بالسلف فلا يزال من الصعب الجزم اي هذه العناصر هي من نتاج تأثير السلف وايها مفعول الظروف الحالية . واذا ما تكلمنا عن نشو الفرد وجب علـ العودة الى ما قبل الولادة أي الى ذلك الزمن الذي يتكيف فـ الجنين . ولا نعلم شيئا عن التأثير الذي تحدثه تطورات حيـ الجنين على الطباع النفسية . وجل ما يمكننا عمله هو تعيين فعـ ما قد تحدثه شجة بليغة في الجهاز العصبي ، ثم ترجع بعدها الـ الزمن الذي كان فيه الفرد جنينا في بطن امه ، فيتكون منها حا تسمم أو فساد . ويمكن تعيين ذلك من تتبع سير العوارض التي قـ تأتي فيما بعد ، فينشأ عنها شتى الاضطرابات مثل البلاهة أو الصرع .

٣ — الطبع الكسبي

— العوامل الثلاثة —

ولا تقتصر ماهية الطبع على العناصر الغريزية التي ذكرنا ، بل هنالك عوامل اخرى تشترك في تأليف الشخصية الانسانية ،منها شتى الاستعدادات لنشوء القوى الكامنة في نفس الطفل عند ولادته ، فتتكيف هذه بتكيف البيئة التي يوجد فيها . ويرجع بعض العلماء سبب بعض التباين الذي يرى في الشخصيات الانسانية الى تنوع التأثيرات التي يخضعون لها ، كما يرجعون سبب الفروق الحاصلة بين بعض الحيوانات والنبات والبعض الآخر الى الشرائط الاستثنائية التي قد تعيش في وسطها . ويجب ان نميز بين تلك المؤثرات، اولا البيئة الطبيعية التي تفعل في الانسان فعلها في الحيوان ،ثانيا الوسط الاجتماعي الذي يرى له أثر ابلغ في الانسان مما يرى في الحيوان ، ثالثا العامل الشخصي وهو مختص بالانسان دون الحيوان لأن عقله النامي يفسح له مجال التفكير والتأمل في الأعمال التي يقدم عليها والمكانة التي يسعى للوصول اليها بين اقرانه فلا يجب اهمال هذا العامل الهام في تأليف شخصيته .

وللبيئة الطبيعية في روح الانسان آثار ثلاثة : فهي تبـدل في تشكيل جسمه ومجموع اعضائه . وقد علمنا ما هي العلاقة الوثيقة التي تربط المزاج بالطبع . وهي تختار الأنسب من الأفراد والأجناس فلا تبقي الا على الذين في نفوسهم قابلية التمثل . ويشمل هذا التمثل الوجهتين الروحية والجسمية ايضاً . ومع ذلك فإن هذا الانتخاب النوعي اظهر أثراً في الأجناس الحيوانية منه في الجنس الانساني لما يعترضه عند هذا الأخير من الاعتبارات الاجتماعية والأخلاقية . واخيراً للبيئة تأثير يخضع له الانسان بطريقة مداورة ونعني بهـذا التأثير انقياده لبعض العادات . ويطلق عليه البعض اسم « النظام(١) » ونعني بهِ مجموع العادات الطبيعية أو الذرائع التي تسخرها البيئة للتأثير على الفرد فيصبح وفاقا لهذا المعنى الهواء والغذاء والعمل اهم اسس هذا النظام . فالهواء فعال في الانسان بتركيبه وكيفية ضغطه ودرجة حرارته فيؤثر في جسم الانسان وروحه . والغذاء هو اهم اساس في هذا النظام فيسهل التعديل فيه . ويمكن تركيبا على شتى الألوان . ولا نكران ان الوسائل المخدرة أو المهيجة اثرها

(١) كابانيس Cabanis .

في الجهاز العصبي وهي معروفة في جميع البلاد ولدى الأمم كافة. أما العمل أو القدرة على الأعمال المنظمة فهي اعظم مؤثر في شخصية الانسان النفسية . فإذا ما وضعنا رجلا بصورة مستمرة أمام عدد محدود من الأشياء وتطلبنا من جده وذكائه حل قضايا متجانسة واكرهناه على ترويض مواهبه النفسية والأخلاقية ضمن نطاق محدود للفكر والعمل ، فلا شك في ان التعديل يطرأ على نظام عقله بصورة بليغة ولا مرية في ان شكل العمل هو عامل اساسي في تنويع العقول .

واذا ما عددنا العوامل الطبيعية جدير بنا عدم اهمال مكانة الأمراض وفعلها في العقول ولا سيما ان جميع الأمراض العضوية لها اثرها المستعجل في الجهاز العصبي وبالتالي في حالة الانسان الروحية . وكم من خال يطرأ على العقل اثناء ألم حاد أو مزمن ينشأ عن بحران لأمراض مخوفة . وقد دعا العلماء الأمراض التي تحدث مثل هذه الاضطرابات بالأمراض العقلية . واذا ما رجعنا إلى تعريف الطبع وذكرنا بأنه روح الانسان الخاصة جاز لنا ان ندعو جميع الأمراض العقلية بأمراض الطبع . ويطلق هذا التعبير على الأمراض التي تحدث تبلبلا شديداً في المواهب العقلية . ويرى

في بعض الحالات ان المرض متأصل في الطبع الغريزي مثل البلاهة والحمق وفساد الأخلاق الفطري . ويرى في بعضها ثورة غريبة في العناصر التي تتعاون على تأليف الطبع اثناء نشأة الفرد ونموه . مثال ذلك ما يشاهد في بدء الفلج الذي يبتلى به الجسم أو الجنون الذي يطرأ على العقل ، ومنها ايضاً تلك الاضطرابات الموقتة التي تظهر وتختفي فيصبح للجسم الواحد شخصيتان تختلف الواحدة عن الأخرى في حالتي البحران والشفاء . فيسمح لنا هذا الانحلال البطيء والمستمر الذي تسببه الأمراض برقابة تطوراته بالتفصيل ويفسح لنا المجال لدرس اختباري وتدقيق العلاقات التي تربط عناصر الروح الانسانية بعضها ببعض .

— عوامل الوسط الاجتماعي —

لا يزال درس اعمال البشر وما تبعثها من الانفعالات المتبادلة بينهم من القضايا التي لم يتقدم العلماء في تفهم كنهها شوطاً بعيداً . لكن بالرغم من هذا الغموض الذي يكتنف سر تأثر الطباع بعضها ببعض يظل هذا العمل الاجتماعي اكثر العوامل نفوذاً في تكوين شخصية الفرد . وقد صدق المثل القائل : قل لي من تخادن اقل لك من انت . واذا ما تفحصنا حال جماعة من الرجال في

علاقات بعضهم مع البعض الآخر نلاحظ تعديلا هاماً يطرأ عـلى طباعهم ، وهذا التعديل المتبادل يحصل في كل جماعة مـن الناس بوسائل مختلفة ، منها تبادل البينات والحجج أثناء البحث والجدل ومنهاوسائل الاقناع والايعاز والقدوة،ويذهب فريق من العلماء (١) الى التأكيد بان عمل الجماعة ترى ظاهراته في تأثير الأفرادبعضهم على بعض . ويعتقد فريق آخر (٢) ان قوى جديدة تنشأ مـن اجتماع الأفراد ، وان هذه القوى خاصة بتلك الجماعة، ملازمـة لعناصرها ، فتختلف الأفكار والعواطف والارادات الاجتماعية اختلافا تاما عن عواطف وافكار وإرادة افراد الجماعةانفسهم . وان للأولى طبائع غير طبائع الافراد الذين يؤلفونها . وفضلا عن ذلك فقد يكون الشعور الاجتماعي الذي نعيش في وسطه هو الذي يبعث في فكرنا المبادئ التي يرتكز عليها روح منطقنا الخاص ويلوح لنا ان علماء الاجتماع المعاصرين الذين انصرفوا الى درس ماهية الضمير الاجتماعي الذي هو شعور الجماعة المشترك ، لم يتعمقوا في بحث تلك القضية القائمة على انفعال الافراد من مؤثرات المجتمع انفعالاً تتفاوت درجته عند كل واحـد منهم . وإذا كان الطفل لا يتقبل طوعا

---

(١) تارد Tarde (٢) دوركيم Durkhaım

الافكار والعواطف التي نحاول ان نبعثها فيه ، فلا نعجب إذا اصطدمنا بتمرد الفتى المراهق او الشاب . وعلى كل حال لا مفرّ من الاعتراف بأهمية تأثير عمل الوسط الاجتماعي فيختلف تعوّد كل منا عايه، ونرى هذا الرجل مقلدا لزعيم ، وذاك منقادا الفكرة عالم، وذياك يمثل رجال مهنته اصدق تمثيل فهو نموذج حيّ عن فرقته او طائفته اوجماعته، وهذا الآخر اصبح مثالا للجد والعمل فتوصل بفضل اجتهاده وقوة ارادته الى تحقيق مثل اعلى استحثته اليه فكـرة فلسفية او عقيدة اجتماعية .

– العامل الشخصي –

ولا مرية في ان الارادة المدركة هي عامل هام في تأليف الطبع ويتمشى هذا العامل بجانب بقية العوامل التي سبق ذكرها فتتألف من مجموعها روح الانسان الخاصة . فلا حاجة في ذلك الى الرجوع لفكرة قدرية او جبرية ، فالرجل قادر على ادراك قيمة عمله المقبل والوصول الى تكييف ذات نفسه بشتى الوسائل سواء اكان من القدريين ام من الجبريين وقد حض الحكماء في كل عصر على لزوم مثل هذا العمل . وقد يكون المحرض الذي يحمل المرء بالطموح الى التقرب من الطبع السامي مستندا الى عقيدة دينية او فلسفية

دهرية ، وقد يكون ذلك ايضا مبنيا على المنفعة . فـلا شك في ان المرء باستطاعته تعديل ذات نفسه مهما كان نوع المحرض الذي يدعوه الى ذلك ، فينهج طرائق شتى للوصول الى غايته . ويشرح لنا علم الاخلاق هذه الطرق بتفاصيلها ، فمنها ما هو طبيعي يتعلق بالجسم مثل العزلة وتناول مأكولات خاصة واخضاع قوى الجسم الى تمارين منتظمة ، ومنها ما هو عقلي وعاطفي مثل التأمل ورقابة الضمير والحزم واتباع بعض مناهج لتنظيم الفكر او كبح الشهوات ، ومنها ما هو اجتماعي مثل الانتساب الى جمعية جعلت غايتها تهذيب الاخلاق او التردد لاجتماعات موقوتة ، او حفلات دينية . ويتوقف نجاح الوسائل المستعملة على قوة الادراك وبراعة السلوك والثبات في العمل ولم تخرج هذه المناقب عن نطاق المناقب الشخصية ، فبامكاننا اذاً الوصول الى التحلي بسجايا الطبع الحقيقي ذاك الطبع الذي عرفناه بالمعنى الشامل فيصبح مرادفاً للارادة الفعالة التي يقودها الاعتقاد الراسخ فيتحول الى سجية نادرة تلازم الرجل الحازم (١) ولا بدّ للذي يود تهذيب ارادته ان يكون من كبار المتطوعين ، ولا يشترط لذلك وفرة النمو العقلي عند المرء فقد اثبتت التجاريب اهمية

---

(١) راجع بدء هذه الرسالة صحيفة ١٣

العامل الشخصي حتى عند الاحداث، وما اكثر الشواهد التاريخية التي تروي لنا وصول شباب او اطفال جعلوا نصب اعينهم مثلاً اعلى وسعوا الى تحقيقه وافلحوا بهمتهم وقد تكون النظريات اكثر نفوذاً الى قلب الشاب منها في قلب الرجل لأن مواهب الرجل المتكاملة تستعصي لفقدانها المرونة اللازمة ، فيتعذر عليه ان يعدل في طبع ذات نفسه تعديلاً عميقاً . ولنحذر على كل حال من ان نتصور القوة المدركة كوحدة متجانسة فهي في تعديل مستمر لأنها نتاج لقوى شتى .

===*===*===*===

فيتبين لنا من هذا كله ان نشوء الفرد النفساني يخضع لنواميس مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعلم الحياة فيتأثر بها جهازه العصبي ويخضع ايضاً هذا النشوء لمؤثرات خارجية منها ما هو طبيعي ، ومنها ما هو اجتماعي وهنالك اخيراً نشوء داخلي يتعلق بالارادة وهو خلاصة القوى الفعالة والتأملات الشخصية . واذا شئنا ان نحيط علماً بطبع الانسان يجب ان ندرس طباع الجنس الذي هو منه والبيئة التي نشأ فيها والزمن الذي عاش فيه . ويجب علينا درس هذا الكل الكثير التعقيد الذي يدعى الشخصية . وقد تكون هذه خلاصة تحليلية للعناصر السابقة ولكنها خلاصة ذابت فيها تلك العناصر وتحولت الى شخصية جديدة ، وفي هذه الشخصية قابلية واسعة لتعديل نفسها بنفسها .

الخاتمة

امكان التهذيب

تلك هي نظريات الحكماء في ماهية الطبع ، والطبع هو موضوع التهذيب في الانسان ، واذا ما اختلفت تلك النظريات في درجة تأثر الطبع بالتهذيب فيمكننا ان نبحث عن النقاط التي تم الاتفاق عليها .

النقطة الاولى التي يتفق الحكماء على تأييدها هي وجود طبع غريزي في الانسان . فنظر الشكوكيون الى الطبع كوحدة لانعلم عن اصلها شيئا ورأى الفلاسفة المتأخرون انه وحدة حقيقية موجودة قبل كل تربية وارجعوا سبب وجودها الى الوراثة .

ولا نرى فائدة تذكر من توحيد معنى الغريزة والوراثة فالاولى هي الخاصة التي تنتقل من الآباء الى الأبناء سواء اكانت منقبة مستحبة ام رذيلة مستهجنة . والثانية هي عمل الانتقال نفسه الذي يتم بواسطة التناسل .

اما المتعصبون لقضية التهذيب فقد اعاروا الطبع الكسبي اهمية

كبيرة فتضاءلت فكرة الغريزة في اعين بعضهم حتى كادت تصبح هباء ، واذا اعتقد هذا البعض بمساواة الافراد كافة حين ولادتهم فانه لم يذهب هذا المذهب الا لحرصه الشديد على قضية التهذيب ، وفي ذلك ما فيه من الافراط في المغالاة ، والاعتقاد النسبي بنجح التهذيب هو اقرب لمحجة الصواب .

—✲—✲—✲—

اثبت علم النفس الاختباري ان الطبع الغريزي هو من العناصر الاولى التي تتألف منها الشخصية الانسانية واضاف اليها عناصر اخرى لا سبيل الى اهمالها ، ونعني بها العوامل الخارجية التي لا علاقة لها بالوراثة وهي من صنع التهذيب : وهذه هي النقطة الثانية التي اتفق عليها معظم الحكماء ، اي وجود عامل كسبي بجانب العامل الغريزي . وانفرد الشكوكيون بتحديد فوائد هذا العامل وحصروها في الوجهة الاجتماعية او السياسية ونفوا الفوائد الاخلاقية فاعتبر بعضهم التهذيب كطلاء سطحي لا ينفذ الى اعماق الطبع الحقيقي ولا يبدل فيه . لكن علم النفس الاختباري اثبت نفوذ التهذيب وسلطانه القوي على الطباع فيحتل الطبع الجديد مكان الاول ويطرده على التدريج ويصبح طبيعة ثانية ترسخ في النفوس

مع مرور الزمن . ويمكن تلخيص هذه النقطة الثانية التي يتفق عليها معظم الحكماء بهذه الجملة : ان في الطبع الغريزي استعداداً لقبول طبع كسبي .

فماذا تكون علاقة هذا الطبع بالتهذيب ؟

شاهدنا انه لم ينف احد الحكماء نفياً جازما امكان تأثره وانما اختلفوا فقط في درجة هذا التأثير وجاءت اقوالهم بين الشدة والضعف وبين القلة والكثرة . لكنهم جميعهم متفقون على ان الانسان لا بد له من ان يتأثر بالعوامل الخارجية التي يعيش في كنفها فكانت اذاً النتائج في بعض النظريات حائرة مترددة وكانت في بعضها ثابتة وطيدة لكن المبدأ الأصلي الذي نحن بصدده لم يحس بسوء وهو : ان التهذيب قضية يمكن تحقيقها .

****

ورب معترض يقول : ولماذا هذا العناء لاثبات امر اعترف به ضمنا او صراحة الحكماء جميعهم ؟ فنجيب على هذا ان الاعتراف بامكان التهذيب سواء اكان صريحا ام غير صريح لم يكف لهدم الشكوك التي تهدد كيان هذا المبدأ ، ولا يزال فريق قليل الثقة به وبنجعه ولا سيما ان هنالك بعض الطباع التي حارت بها حيل الاطباء والمهذبين ويئسوا من امكان اصلاحها . وحمل هذا اليأس

بعض الضعفاء من المهذبين الى الشك بنجع التأديب وفوائده. وانني لم ادّع ان لا بد لكل مهذب من الوصول حتما الى تحقيق الغاية التي يتوخاها ، لأنه قد لا يتوفر له جميع الشروط اللازمة لفوزه وقد يعترضه عامل خفي كامن في جسم الطفل اوعقله يتعذر استئصاله بالوسائل التي وضعت بين يديه ، وقد يهدم عمله الصادق وجهوده الخالصة ما ينتظر الطفل الذي يعود الى اهله في كل مساء من مساوئ البيئة المتدنية التي يعيش عليها في منزل اوليائه وقد يصطدم ذلك المهذب الغيور بفطرته الحكومة التي تمتلك رقاب العباد واموالهم واماينهم والتي لا تتحسس بحاجات الأمة التي تتحكم بها ، وقد يكون ذلك ايضا من عجز المهذب نفسه لعدم توفر صفات المهذب الحقيقي فيه(١) اما الذي حاولت ان اضعه نصب عينيك ايها القارئ في هذه الرسالة فهو تقرير الحقائق الراهنة التي توصل اليها العلم الصحيح، فعلى المسؤولين عن ادارة طباع الأمم الشرقية بصورة عامة وامتنا بصورة خاصة درس الطرق التي تتفق مع غايتنا كجماعة قد يكون لها مثلها الاعلى للوصول الى السعادة المنشودة بتهذيب الطباع والاخلاق وتثقيف المواهب والعقول .

* * *

(١) راجع رسالة الذكاء والتهذيب للمؤلف صحيفة ٣٦

كانت الوجهة العملية التي توخيتها من رسالتي السابقة « الثقافة والتهذيب » ، باظهار جهل المعلمين وتعداد بعض الآثام التي يقترفونها باسم التربية والتعليم على اخلاق أبنائنا وأرواحهم وعقولهم وأجسامهم ، تنبيه الأفكار إلى لزوم تأسيس دار للمعلمين . والوجهة العملية لهذا البحث هي لزوم التمسك بمبدأ التهذيب لأنه أمر ممكن نستطيع به تبديل الطباع الفاسدة بطباع صالحة ولزوم تدبر هذا الأمر بتشييد دور العلم وتطبيق التعليم الالزامي في كل بلدة وقرية لأن كل مدرسة تفتح ابوابها لتثقيف العقول وتهذيب الطباع تسهل علينا اغلاق باب من أبواب السجون وتفتح لنا نافذة من نوافذ الجنة.

والخلاصة اننا لم نقل بإمكان التهذيب إلا بعد أن دعمنا قولنا بالحجج العلمية الثابتة وأقمنا الأدلة عليه ، وإذا شاء معترض أن لا يسلم بهذه الأدلة فنجيبه بأن امكان التهذيب هو من الحقائق الراهنة التي هي بغنى عن أدلة أوضح مما ذكرنا فلم يفرض على كل حال الرياضيون اقامة علمهم على مبادئ واضحة قد يتعذر على العقل الإنساني اقامة الحجة على صحتها ، فهي صحيحة بذاتها ولا حرج علينا إذاً أن نجزم ان مبدأ امكان التهذيب أمر راهن وهو أول مبدأ فلسفي يستند اليه فن التربية والتعليم . . .

تمت

مباحث الرسالة

تمهيد : ماهية الطبع　　　صحيفة

الفصل الاول

نظرية الحكماء الشكوكيين

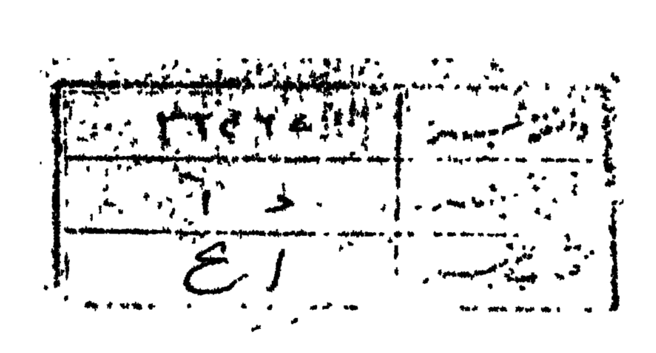
الفصل الثاني

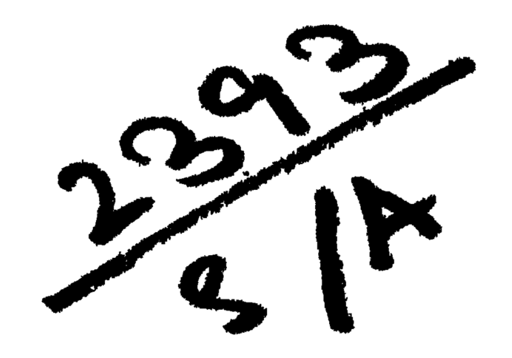
نظرية الحكماء المعتقدين

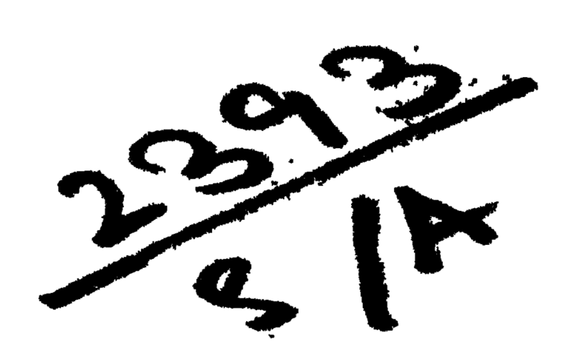
تصحيح خطأ

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢	٥	العلمية	العملية
٢	٨	فيالتربية	بالتربية
٧	١٢	يصبج	يصبح
٧	١٧	فوميبه	فوبيبه
٢٠	١٤	الحية	الحسية
٢٥	١٦	للارادة	كارادة
٢٥	١٦	تصوره	تصور
٢٧	٩	تدخله	تدجنه
٣٠	١٢	الرأي	الفصل
٤٤	٦	لايتبدل	يتبدل
٥٣	١٠	منخلفه	منحلفه
٥٤	١٤	نهذيب	تهذب
٦٠	١٢	جيدة	جديدة
٦٥	٩	فلنعتقد	فنعتقد
٦٧	٣	منه	فيه
٧٠	١٣	ووضوع	ووضوح
٧٢	٦	موقت	موقوت
٧٢	١٠	موقت	موقوت
٧٣	١	في ما	فيها
٨٢	٨	تأمل	نأمل
٨٨	٥	الموقتة	الموقوتة
٩١	٦	متغلمة	منظمة
٩١	١٧	١٣	٦
٩٢	٦	وصول	وجود
٩٦	٨	بفطرته	بغطرسة

***







مكان التهذيب

هذه الكتب حسنة من حسنات التهذيب، يسمو بسمو مناهجه، وينشأ على أساس النظام المرتبي الموروث كما تنشأ الفروع على جذع الشجرة الملقحة به، فيحيى بها حياة نامية، ويحمل [illegible] .

مطبعة العرفان — صيدا

تطلب هذه الرسالة

من مؤلفها وعنوانه كما يلي :

ابو زهير الاندلسي — بيروت

ومن

مطبعة العرفان — صيدا

والمكتبة الاهلية

شارع الوسطة العدية — بيروت

ومكتبة المطبعة الاميركية

سوق ا[illegible] — بيروت

— ومن سائر المكتبات الشهيرة —

ثمنها **٣٩** قرشا سوريا